Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

OCT 3 19

مي زيادة

رسائل مي

صفحات وعبرات من ادب مي الخالد

منشورات دار بيروت

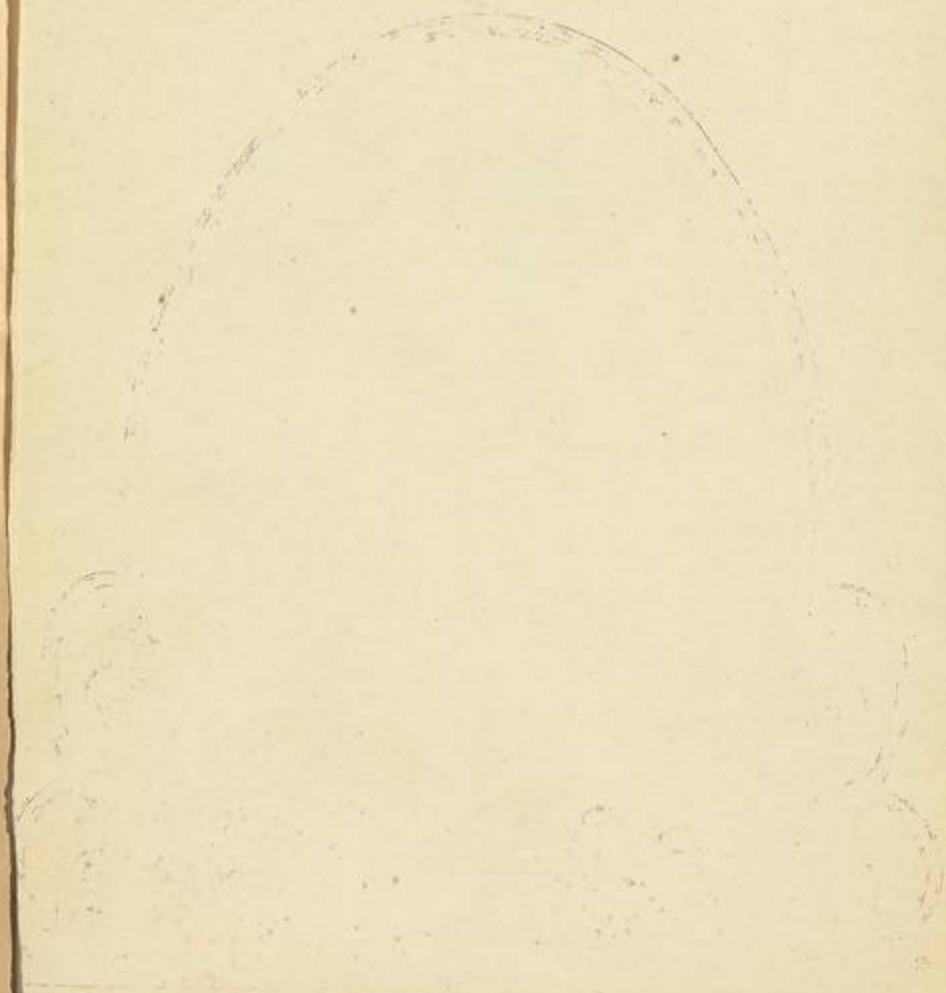

رسائل مي

صفحات وعبرات من ادب مي الخالد

بقلم
مي زيادة

تقديم
جميل جبر

طبعة ثانية مزيدة

دار بيروت
للطباعة والنشر
بيروت ١٩٥٤

893.7Z69
M

مآخذ

كتب :

باحثة البادية	لمي زياده
مي وجبران	لجميل جبر
امين الريحاني ، الرجل الاديب	لجميل جبر

مجلات :

الهلال

المقتطف

المحروسة

مقدّمة

لا تذكر النهضة النسائية في الشرق العربي الا ويتسابق الى الاذهان توأ اسم مي . مي الاديبة المجاهدة التي عاشت ما كتبت فكانت حياتها المليئة خير ما تركت من الآثار .

ولدت ماري زياده [1] في ناصرة فلسطين حيث ترعرعت وتمت مبادىء الدروس. حتى اذا بلغت عامها الرابع عشر دخلت مدرسة عينطورة في سنة ١٨٩٩ . وهنالك عرفت بقوة الشخصية وحدة الذكاء وغرابة الاطوار .

كانت دقيقة الملاحظة ، انيسة العشرة ، رضية الخلق ، تحب اللهو والضحك والحركة . ولكنها كانت غريبة الروح ، موحشة الفؤاد تميـــل الى العزلة فتخلو بنفسها تتنهد وتشكو وتكتب وتحسد العصافير المرفرفة حولها ، تزقزق على هواها حرة طليقة .

وغادرت مي مدرسة عينطورة سنة ١٩٠٤ الى الناصرة حيث

(١) ابوها لبناني من قرية شحتول في فتوح كسروان، وامها فلسطينية الاصل.

اقام ابواها وقد انجزت دروسها الثانوية بتفوق ملموس فعاشت في تلك المدينة غريبة ، الا عن والديها ، تفتش عن طريقها متأوهة لا تستكين .

هل ترضى بعيشها الخامـــل المقفر فتكتفي وتستقر ؟ لا بل تتحرر من قيود وضعها فتستثمر كل ذاتيتها الحصيبة وتمـــلأ وجودها وتفعل .

وانتقلت الى القاهرة مع ذويهـــا حيث مجال العمل ارحب واطلق ، غير ان امكاناتها المادية المحدودة حتمت عليها ان تبقى غريبة هنالك ايضاً . فلا الاوساط الراقية كانت تعرفها فتقدر موهبتها ، ولا مواردها المالية كفت لتتيح لهـا الظهور ، فاضطرت الى ان تحيا على الهامش حيناً ، فتألمت وشكت الى نفسها حرقة النفس وعزمت على ان تلمع... او تموت .

في مسكن صغير آمن يكاد يخلو الا من ضروري الاثاث ، جلست ماري الى طاولة مستديرة تتأمل وتدرس ، ليل نهـار ، لا تبالي مطلقاً بنهي والديها عن جهد عقلي قد ينهك قواهـــا . فطالعت في وحدتها تلك لامرتين وكوونتاي وشلر وبيرون وشلي ، وساحت معهم في اثير الشعر تحاول التفلت من وضعها الجائر ، وطالعت ايضاً سير من اشتهرن ووجهن من الاديبات ، ولا سيما مـدام دي سيفينيه وجورج صند ومـدام دي ستال ، فتساءلت غير مرة لم لا تسير هي في اثرهن ولا الحسن ينقصهـا ولا العزم ولا الذكاء...

ومن الاحلام ما اذا عاشها صاحبها لا تلبث ان تتحقق . احست ابنة الياس زياده بميل جامح الى الاخراج فجعلت تكتب بالفرنسية ، شعراً ونثراً ، وتنقح وتصقل وتهيء للنشر بعض مقطوعات . واذ ايقنت ان اسمها لا يستلفت انتباه القراء فيقبلوا على تذوق كتاباتها وهم مفطورون اجمالاً على الاخذ بالظاهر، اختارت لها اسماً مستعاراً موسيقي الوقع يثير الفضول: ايزيس كوبيا [1] وقعت به منشوراتها الاولى ، وثقتها بالنجاح لا تحد .

وشقت ايزيس كوبيا طريقها في اوساط الادب المصرية بعد صدور باكورتها Fleurs de rêve [2]، فلهجت بذكرها المجالس متسائلة من تكون تلك الاديبة الشاعرة ، الى ان ظهرت ماري زياده آخر الامر وانطلقت انطلاقة الحزم والايمان .

بيد ان هذه الشهرة التي طالما سعت اليها مي وحسبتها الدواء الناجع لقلقها لم تحررها طويلاً من ربقة الكآبة . فما هي ايام حتى عاودها السأم فشعرت بعقم الحياة الرتيبة وأحست بالفراغ القاتم يسود اعماقها ولا يغيب . وتطلعت الى المرآة ، ذات صباح ، تناجي نفسها الشرود فبدت لها غضاضة الصبا في اكمل حلقاتها وابهج . وتراءى لها في الخيال الغد الرهيب، يسم النضارة ساعة

---

(١) ايزيس زوجة اوزيريس ترمز الى العذراء – ماري – وكوبيا هي ترجمة زياده في اللاتينية .

(٢) ازهار حلم

فساعة ، فالقت بيدها تعبة عند موقع القلب ، وتمتمت ممتعضة : ما اقسى الزمان . وانصرفت الى حديقتهـا تعنى بها وتعنى ، ثم عادت الى غرفتها ولم تنفرج ، فتناولت قيثارتها الصفراء ووقعت «برساز» شوبان وهي لا تنفك واجمة حزينة ، اذ سألتها امها عما بهـا حاولت التبسم واستهجنت السؤال . وماذا اقلق ميا وعذبها الا وحشتها الجافة التي سعت عبثاً لان تبددها فتستقر .

وعاودها الشوق الى مدرسة عينطورة ، الى ايام تلمذتها ، الى صنين والوادي والبحر والارز ، وما سلخت ازاءها من فلذات متأججات عن ذاتيتها الفتية ، فأمت لبنـان سنة ١٩١١ في طلب الترفيه والسلوى ، وكانت شهرتها الادبية قد تقدمتها اليه .

وفي لبنان قصدت ضهور الشوير فابتنت لها «كوخاً اخضر» في حضن الطبيعة تحول سريعاً الى محجة كتاب العصر ، وقد ارادته خلوة هادئة تحلم في كنفها وتكتب وتلهو .

وهنالك في هدأة الكوخ الاخضر ، راحت تترجم «الحب في العذاب» باسلوب عربي عذب . حتى اذا جـاء الخريف عادت وذووها الى مصر ولمـا تزل تشكو الفراغ الذي لم تكن لتملأه طويلاً ، لا الحفاوة البـالغة التي لقيتها حيثما حلت ولا خواطر مولر الشعرية وذكرياته الغبراء .

وابتسمت مي لمودعيها وابتسمت وهي تغادر ربوع لبنان . ورب ابتسامة زاهية ، حجبت شقوة النفس .

وفي مصر كتبت مي بجرأة واستمرار ، في « المحروسة » مجلة ابيها ، وفي « البروغره » وغيرهما من الصحف المصرية، فاجتذبت اليها انتباه الادباء ، فالتف حولها عدد من البـــارزين بينهم ، جعلوا من منزلها صالة لهم، كانوا يرتادونها ، كل ثلاثاء، فيتباحثون في شؤون التأليف والفنون والثقافة ويتشاورون، في جو رصين يشيع فيه الطمأنينة حسن الفتاة العذب يعززه الذكاء[1]

وفي تلك الحلقات الادبية الدورية طالعت مي مقـالاً لجبران خليل جبران ، فاستذوقت نهجه واستزادت ، وقـد لقيت لديه غصة ألم وضراوة وحشة وفورة جموح طالما تنازعتها هي فاورثتها القلق الذي لا يهادن .

ولم تكتف بمطالعة جبران وحسب، بل راحت تستوضح سيرته واوضاعه باهتمام جدي ، كأنما هي ارادت ان تكتشف الينبوع الاصيل الذي فجر ذلك النتاج .

وعنّ لها ان تكتب اليه، ولكن كيف تفعل وهي لا تعرفه، وبعد تردد طويل تناولت ريشتها وخطت اول رسالة منهـا الى جبران . وكان ذلك في ٢٩ اذار سنة ١٩١٢ .

استهلت مي رسالتها بتعريف ذاتهـــا فقالت : « امضي مي بالعربية ، وهو اختصار اسمي ، ومكون من الحرفين الاول

---

(١) من رواد صالتها كان ولي الدين يكن ، طه حسين ، خليل مطران، شبلي الشميل، انطون الجميل، اسماعيل صبري، يعقوب صروف، المازني ، العقاد .

والاخير من اسمي الحقيقي الذي هو ماري وامضي «ايزيس كوبيا» بالفرنجية ، غير ان هذا لا اسمي ولا ذاك . اني وحيدة والدي وان تعددت القابي» . وراحت تحدثه عن حالتها في مصر ، وعن تاليفها وطريقة حياتها، وعن مشاريعها الادبية وما اليها من شؤون خاصة بها ، ما كانت لتذكرها، لو انها لم تشأ ان ترضي كبرياءها الانثوي باقناعها جبران بانها ليست متطفلة عادية تكتب اليه...

واستمرت من ثم هذه المراسلة خصيبة بالشعور حتى وفاة جبران .

ونشبت الحرب الكونية الاولى فانقطعت المواصلات بين العالمين ، القديم والجديد ، فجزعت مي وترقبت ، على مضض ، انفراج الازمة . الا انها لم تهمل صالتها العامرة ولم تنقطع عن الكتابة ، عزائها الاوحد ، بل واصلت ابحاثها في مجلات المحروسة والمقتطف والمقطم والهلال .

وقد درست بنوع خاص وضع المرأة الشرقية وبيئتها وطبيعتها فاوضحت موجباتها ، وايدت حقوقها ، واتخذت من باحثة البادية مثلاً اعلى للجهاد النسائي . وقد دفعها حبها الاستزادة من العلوم الى الالتحاق بالجامعة المصرية حيث تعمقت في درس الفلسفة العامة والفلسفة العربية وعلم الاخلاق على المستشرق الاسباني الكونت جلارزا . وبعيد الحرب نشرت كتابها «باحثة البادية» فلاقى استحساناً كبيراً في اوساط الادب في مصر وفي غير مصر . فازدادت ثقتها بنفسها وجمعت بعض ما كتبته في

المقتطف والهلال والمقطم ونشرته على التوالي في «ظلمات واشعة» «بين المد والجذر»، «الصحائف»، «سوانح فتاة» كما جمعت عدداً من خطبها «كلمات واشارات».

وكان الحنين يلح بها دوماً الى لبنان فجاءته مرتين [1] والقت فيه محاضرات قيمة عن رسالة المرأة. وفي سنة ١٩٢٥ سافرت الى ايطاليا تشاهد فيها عن كثب روائع رافائيل وميكالنجلو ودافينشي وغيرهم من اعلام الفن العالمي الخالد.

واخذ الزمان يعبس لمي سنة ١٩٢٨، فمات على التوالي صديقها يعقوب صروف، وابواها وجبران، فوجدت نفسها هرمة وحيدة، في ذلك المنزل الذي طالما عمر برواد صالتها وعودها في كنف ذويها الطمأنينة والرخاء. فاعتزلت العالم ظناً منها ان الوحدة خير بلسم لكلومها المعنوية، ولكنها لم تلبث ان ضاقت بوحدتها تلك، فنقمت على منزلها وما فيه من اشياء تذكرها بالامس الرغيد، فسافرت الى فرنسا سنة ١٩٣٢ وجالت في حواضرها، وتوجهت منها الى انكلترة حيث زارت بلد شكسبير واكسفورد، وانتقلت الى سويسرا فايطاليا متلمسة في كل مكان عزاء يدوم. ولكن نفسها القلقة كانت تترجح دوماً في فجوة القلب الطعين، فملت السياحة وعاودها الحنين الى القلم، فرجعت الى مصر، وغيرت منزلها، وراحت تترجم اعلام

(١) كانت تستقبل في لبنان استقبال الفاتحين فتقام على شرفها الحفلات التكريمية حيث تحل.

الفكر الاغريقي ، وتطالع ورثر ورينه وتأملات لامرتين ، محاولة ان تذهل عن نفسها حيناً في غمرة العمل المرهق .

وضاق بها الجو ثانية ، فركبت البحر الى ايطاليا حيث درست ، في جامعة بروجيه ، آثار اللغة الايطالية وجالت في متاحفها التي اوحت اليها بالامس ابلغ الاعجاب. ولكنها لم تكن لتستقر على حال، فاخذت هنالك عوارض الاعياء العقلي تظهر في جسدها المثقل بالهموم والمشقات، فتعبت من الكتابة فاستعانت بيد سكرتيرة وهي تترجم بعض المآسي .

وعادت الى مصر ، فاشتد عليها المرض وازداد تبرمها بالحياة فقصدت لبنان ، موطنها الاول ، تطلب الاستشفاء في ربيع سنة ١٩٣٧ . ولكن على غير طائل . فرجعت الى القاهرة تجر ايامها جراً حتى كانت خفقة قلبها الاخيرة في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩٤١

اما رسائل مي فقد قال عنها انطون الجميل :

« رسائل مي يجب الاحتفاظ بها لانها نوع جميل من ادب الرسائل في الادب العربي ، ففي الادب الفرنسي رسائل لامثال فلوبير وفولتير وغيرهما ، وفي هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب اكثر من دراسته في مؤلفاته . وعندي لمي بضع رسائل اعتز بها لانها اثر باق من آثارها . ورأيي ان تجمع رسائلها الى من اتصلوا بها ، وتنشر في كتاب خاص ، ففيها ولا شك ثروة كبيرة ، وتراث ادبي نفيس .

«رحم الله ميا، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود، فسيح المعالم، وكانت شخصيتها تثب مستقلة من خـــلال افكارها وكتاباتها. فما قلدت كاتباً، ولا حاكت مؤلفاً، ولكنها ترجمت خلجات نفسها او وحي ضميرها، وسر شعورها. وكانت رفيعة في نقدها، رقيقة في مخالفة رأي غيرها. فما آذت شعوراً ولا جرحت احساساً».

جميل جبر

الى باحثة البادية

سنة ١٩٠٢

باحثة البادية هي ملك حفني ناصف الكاتبة المصرية المعروفة واحدى المجاهدات البارزات في سبيل تحرير المرأة . كتبت عنها مي مؤلفاً عنوانه « باحثة البادية » وقبل ان تتعرف اليها كتبت اليها الرسالتين التاليتين :

* * *

ترنمت باسمك قبل ان اعرفك، واتخذت ذكرك عنواناً لنهضة المرأة المصرية قبل ان اطالع مقالاتك لان اصوات الجمهور قد اتفقت في الثناء على فضلك . غير اني عثرت بالامس على مجموعة كتاباتك النفيسة فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لي اني اقلب صفحات نفسك المفكرة المتوجعة .

ثلاث سنوات مضين ، وتلك المجموعة محفوظة بين دفات المكاتب او مبعثرة بين الاوراق والاسفار المتراكمة يوماً بعد

يوم . لكن سرها ما زال مترقباً يداً تلمسه ، مستعداً لمناجاة نفس تتلمسه .

سنوات ثلاث فيها مشت البشرية خطواتها المعدودات متعثرة بالعظام والجماجم ، منشدة اهازيج النصر الكاذب وتهاليل الفخر الباطل ، وقواها الغالية تسيل على شفار السيوف ، ودماء حياتها تجري انهاراً في سهول قد اخفت نجمها الجميل وثمراتها الممتعة خوفاً من وحشية الانسان .

سنوات ثلاث فيها شعرنا بارتداد صدمات السياسة والاقتصاد والاطماع المتزايدة. فيها ارتفعت دويلات جادة مجتهدة وتهشمت اعضاء تركيا العظيمة بتاريخها، الضعيفة باهمالها وتهاونها. وقد جاش لذلك كل ما في صدر الاسلام من النخوة القديمة وبكت له قلوب الغيورين على مصالح بني عثمان .

كل ذلك ومصر مصر بكآبتها وانعطافها واندفاعها. كل ذلك ونحن هائمون على وجهنا في صحراء الفوضى . صخور التقاليد القديمة تدمي اقدامنـــا الجديدة ، واشواك الاصطلاحات تجرح ايدينا الممتدة للمس اشياء نظنها موصلة الى حياة نريدها عظيمة . والسراب الجميل اللامع في صدور المستقبل غير المحدود يستدعينا آمراً كأنه نظرة عين فتانة ، فنجري في الصحراء ولا ندري الى اين المصير !

سنوات ثلاث مرون على يوم فيه ارتفع صوتك مرشداً . عائلتنا لا تزال على ما كانت عليه ، وافكارنا لم تتغير الا قليلاً ، وعواطفنا ما برحت حائرة بين تيارات متعاكسة دائمة الاضطراب بين ما ندعي اننا نعلم وما نجهل اننا لا نعلم ! غير ان الاصداء الخفية ما زالت ترجع همس ذلك الصوت الرخيم .

بالامس لمست نفسك وقرأت افكارك فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتي روحي ، وما اطبقت الكتاب الا وانا الثم بناني على غير هدى . ولم يكن ذلك الا اجلالاً لصفحات قلبتها وحباً لنفس استجوبتها فعرفتها .

فيا من «ارتفع قلبها الى فكرها وانحنى فكرها على قلبها» ، ايتها الباحثة الحكيمة ، لماذا تصمتين ؟

تتوالى الايام ونحن في ضلال مبين . الرجل يجاهد في حرب الاقتصاد الدائمة . الرجل تائه في مهامه الاشغال فاذا كتب بحث في العموميات ، واذا جال قلمه في الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ الى نور الوجدان النسائي لانه يكتب بفكره ، بانانيته ، بقساوته . والمرأة تحيا بقلبها ، بعواطفها ، بحبها .

علاتنا مستعصية لا يشفيها الا طبيب يعرفها . والمرأة بحكم جنسها ادرى فهي تستطيع معالجتها . ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من فتيات لا يعرفن من الحياة الا ما يصوره لهن الخيال

المحيم بطلانه على منابت العواطف المخصبة . هذا اعتراف ساذج صادق : الفتيات لا يداعبن القلم الا ليذرين الدموع او ليصورن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وان لم يرَ فيها من الاستفهام شيئاً .

لكن الزوجة والام التي اعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة ، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي ، وتلك تقدر ان تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة ، شخصية المرأة وشخصية الرجل .

فيا سيدتي

لدينا قلوب تحترق ولا ندري اي نار تحرقها ، وتلتهب شغفاً بما لا تعرف ماهيته ، فعلمينا انت التي كنت فتاة قبل ان تكوني اماً كيف نرشدها والى اين نوجهها !

لدينا نفوس عزيزة تنحو فيها ميول مبهمة ورغبات حارة فارشدينا اي الاعشاب فاسد فنقتلعه واييها الصالح فنسقيه مـــاء الرعاية والحنان .

قولي يا سيدتي تكلمي !

ضمي يدك البارة الى الايدي التي تحاول رفع هذا الجيل من هوة الحيرة والتردد . ساعدي في تحرير المرأة بتعليمها واجباتها .

ان صوتاً خارجاً من اعماق القلب ، بل من اعمـــاق الجراح كصوتك ، قد يفعل في النفوس ما لا تفعله اصوات الافكار .

لا يهمنا ان تخفي تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك وان تحجبي هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعري ، مـــا دمنا نسمع صوتك في صرير قلمك ونعرف منك الروح العالية .

فهنيئاً لوطن يضم بين ابنائه مثيلاتك، وهنيئاً لصغار يستقون وعود الهناء من ابتساماتك ويسكبون حياتهم في قالب حياتك .

مي

الى جبران

في ١٢ ايار سنة ١٩١٢

طالعت مي « الاجنحة المتكسرة » لجبران فكتبت اليه تطري نهجها الطريف ولهجتها الصادقة ، وتناقشه في موضوع الزواج. فتقول :

* * *

... اننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . انا احترم افكارك ، واجل مبادئك ، لانني اعرفك صادقاً في تعزيزهـــا مخلصاً في الدفاع عنها، وكلها ترمي الى مقاصد شريفة، واشاركك ايضاً في المبدأ الاساسي القـائل بحرية المرأة . فكالرجل يجب ان تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجهـا من بين الشبان تابعة في ذلك اميالها وإلهاماتهـا الشخصية ، لا مكيفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف . حتى اذا ما انتخبت شريكاً لها ، تقيدت بواجبـات تلك الشركة العمرانية تقيداً تاماً . انت

تسمي هذه سلاسل ثقيلة ، حبكتها الاجيال ، وانا اقول انها سلاسل ثقيلة ، نعم . ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي ؛ فان توصل الفكر الى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد ، فلن يتوصل الى كسر القيود الطبيعية لان احكام الطبيعة فوق كل شيء . لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لان باجتماعها هذا السري ، مهما كان طاهراً تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء ارادتها وتخون الهيأة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها .

عند الزواج تعد المرأة بالامانة ، والامانة المعنوية تضاهي الامانة الجسدية اهمية وشأناً . عند الزواج تتكفل المرأة باسعاد زوجها ، وعندما تجتمع سراً برجل آخر تعد مذنبة ازاء المجتمع والعائلة والواجب . ربما اعترضت على هذا بقولك : ان الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديدها في احوال كثيرة ، فليس لنا الا ان نعلم « ما هي العائلة » لنجد الواجبات التي يفرضها على افرادها . ودور المرأة العائلي هو اصعب الادوار واوضعها وامرها .

اني اشعر شعوراً شديداً بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت المتينة متانة اسلاك الذهب . ولكن اذا جوزنا لسلمى « سلمى كرامه بطلة الرواية » ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسمواً وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف

النفس عزيزهـا فهل يصح لكل امرأة لم تجد في الزواج السعادة التي حلمت بها وهي فتاة ان تختار لهـا صديقاً غير زوجها ، وان تجتمع بذلك على غير معرفة من هذا ، حتى وان كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الاجيال المصلوب .

مي

الى الآنسة مي

سنة ١٩١٢

ردت باحثة البادية بالرسالة التالية :

تفضلت فكتبت اليّ كلمتك العذبة في الجريدة وكنت اذ ذاك بين مخالب الموت فلم يكن في وسعي ان امسك القلم لأرد عليك وان كانت مخيلتي لم تبخل بالرد . كانت رسالتك عزاءً جميلاً لي في مرضي الطويل المؤلم وبلسماً ملطفاً لجراحي البالغة التي قلت انك عثرت عليها . آلامي ايتها السيدة شديدة ولكني انقلها بتؤدة كأني أجر احمال الحديد فهل تدرين يا سيدتي ما هولي . ليس لي بحمد الله ميت قريب ابكيه ولا عزيز غائب ارتجيه ولا انا ممن تأسرهم زخارف هذه الحياة الدنيا ويستولي عليهم غرورها فاطمع في اكثر مما انا فيه وليس لي حال سيء اشتكيه ولكن لي قلباً يكاد يذوب عطفاً واشفاقاً على من يستحق

الرحمة ومن لا يستحقها وهذا علة شقائي ومبعث آلامي. ان قلبي يتصدع من احوال هذا المجتمع الفاسد .

وما لي احمّل نفسي اعباء غيرهـــا وليست بمسيطرة على هذا العالم ولكني كنت عاهدت نفسي على الاخذ بيد المرأة المصرية ويعزّ علي ان اتخلى عن هذا العهد وان كان تنفيذه شاقاً ومحفوفاً بالصعوبات ويكاد اليأس يسد طريقي اليه .

كنت اعتزلت الكتابة لا لنضوب مادتها عندي ولا اكتفاء بالقليل الذي كتبت من قبل ولكني كنت مللت المناداة باصلاح المرأة المصرية وثبط عزمي مـــا اراه من انصراف فئة المتعلمين والمتعلمات الجدد عن العمل لتكوين القومية المصرية المطلوبة وما حركتهم التي ملأوا بها القطر صراخاً الا عنوان نهضة كاذبة .

تسأليني يا سيدتي ان ادلك وسط هـــذه الاحوال المتضاربة والآراء المتشعبة عن الطريق الذي يحسن بالفتاة نهجه وانهـا لحال توجب الحيرة ولا ندري اي الطرق نسلك لنصل سريعاً الى الغاية التي نقصد اليها. كلنا يرمي الى تقدم الفتاة وتنورها واعدادها لان تكون زوجة صالحة وأماً نافعة ابناءها ووطنها ولكن لكل مناد بالاصلاح وجهة هو موليها . فبعضهم لا يرى لهذا التأخر والجهل من سبب الا كان راجعاً للحجاب وهؤلاء قرروا وجوب سفور المرأة المصرية حالاً ونسوا حكمة التأني والتحفظ عند ارادة

الانتقال من طور مظلم مألوف الى طور لم يعهـــد من قبل تكتنفه المدهشات واللوامـــع البراقة الجذابة التي تكاد تغشي الابصار .

وفريق لا يرى للسفور فائدة ويقول ان الحجاب لا ينفي العلم وان اطلاق الحرية للمرأة اخيراً كان سبباً لفسادها وان اطراد تعليم المرأة وتثقيفها سيكون مجلبة للشغب ولخروجها عن حدود وظيفتها في المستقبل كما خرجت اختهـــا الغربية الان . فاي الطريقين نسلك ومن نتبع ؟ اننا معشر النساء لا يزال ظلم الرجل يرهقنا واستبداده يأمر وينهي فينـا حتى اصبحنا ولا رأي لنا في انفسنا فاذا قال لنا اختبئن حتى تدفنّ بالحياة صوناً لكن وتدليلاً كما يقول المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة :

(على المدفون قبل التربِ صوناً)

وكقوله في اخت ممدوحة الثانية من رثاء ايضاً :

وما رأيت عيون الانس تدركها
فهل حسدت عليهـا أعين الشهب
وهل سمعت سلامـــاً لي ألم بها
فقد أطلت وما سلمت عن كثب

اذا امرنا الرجل ان نحتجب احتجبنا واذا صاح الآن يطلب

سفورنا اسفرنا ، واذا اراد تعليمنا تعلمنا فهل هو حسن النية في كل ما يطلب منا ولاجلنا ام هو يريد بنا شراً ؟ لا شك انه اخطأ واصاب في تقرير حقنا من قبل ولا شك انه يخطىء ويصيب في تقرير حقوقنا الآن .

نحن لا نأبى ان نتبع رأي العقلاء والمعلمين من الامة ولكننا لا يمكننا كذلك ان نعتقد ان كل من يتصدى للكتابة في موضوع المرأة من العقلاء المصلحين . ليدعنا الرجل نمحص آراءهُ ونختار ارشدها ولا يستبد في (تحريرنا) كما استبد في (استعبادنا) . اننا سئمنا استبداده . اننا لا نخاف من الهواء ولا من الشمس وانما نخاف عينيه ولسانه فان وعدنا ان يغض بصرهُ كما يأمره دينه وان يكن لسانه كما يوصيه الادب نظرنا في أمرنا وأمرهِ ، والا فكل منا حرّ يفعل ما يشاء . والسلام عليكِ ايتها الفاضلة من المعجبة بك المثنية على ادبك الجم وعلمك الغزير .

باحثة البادية

الى باحثة البادية

سنة ١٩١٣

ليس أعز لدينا من لطفك الا حزمك وصراحتك وليس اجمل من صدى صوتك الا فعل معناكِ . واني لأقبض على شجاعتي بيدي لاعترف باني أحب – أستغفر الله واستغفرك يا سيدتي !– آلامك النفسية الشديدة من جراء شقاء الانسانية وضلالها واتمنى من اعماق فؤادي ان تجد دواماً تلك الآلام منفذاً رحباً الى قلبك ، وان يبقى ذلك القلب كريماً ليناً ينجرح لجرح الغريب ، ويبكي لبكاء المظلوم ، ويشفق على المتوجع اياً كان . بالاختصار – عفوك ! عفوك ! – اتمنى لك العذاب المعنوي لانه النـــار المقدسة . أجل ، هو النار التي تطهر ، النار التي تحيي ، النار التي تلين ، النار التي ترفع النفس على اجنحة اللهيب الى سماء المعاني السامية والميول الرفيعة والرغبات الكريمة ، والتحمس لاجراء

الاصلاحات اللازمة وتنفيذ المبادىء الطيبة ، والنهوض بالاجتماع نهضة تهتز لها القلوب حمية وطرباً .

اتمنى لك ذلك ، ولولاه لما وجدنا في كتاباتك تلك الأنة العميقة التي تنبه الفكر وتلمس العاطفة في آن واحد .

لا انكر ان انانيتي تتكلم الآن . غير اني قلت ما قلت مسرعة هامسة . فابتسمي له ان شئت ، والا فلا تصغي ياسيدتي ولا تسمعي بل اسأليني عما اهمس به لاجيب اني احمد الله على ابلالك واني اسأله ان يديمك سالمة . وما أغلى سلامتك لدينا !

* * *

جئت اسرّ اليك امراً وقفت عليه عندما شهدت صدى مقالتك لدى جمهور القراء . اسمعي ياسيدتي الباحثة ، وصوني سري !

رأيت جميعهم يتقبل اقوالك بنظرة الفخر وابتسامة الاعجاب ، ولكني رأيت كذلك اسيادنا الرجال — ... أقول « اسيادنا » مراعاة ... بل تحفظاً من ان ينقل حديثنا اليهم فيظنوا ان النساء يتآمرن عليهم ... فكلمة «اسيادنا» تخمد نار غضبهم — قلت اني رأيتهم يطربون لتصريحنا بانهم ظلمة مستبدون . نعم آنست ذلك في ملامح كل من قرأ مقالك امامي من اسيادنا الرجال .

فذكرت اذ ذاك الا سرور في العالم يضاهي سرور التفاهم . فاذا شعر المرء بان هناك من يفهمه كان سعيداً ، سواء لديه ان تعرف منه صفاته او علاته لان معرفة العلات تتبعها حتماً معرفة الصفات ، وان كان الخير اقل انتشاراً من الشر . وما النقائص الا فضائل مضخمة مكبرة تتسع وتستفيض دون أن تجد لها من الضمير مهذباً فتتجاوز الحدود المعنوية التي عينتها اصطلاحات الاجتماع — اذا كانت اجتماعية — او رسمتها علوم النفس والاخلاق ، اذا كانت اخلاقية .

فعملاً برغبة التفاهم ، وطبقاً لنظام المباهاة ، وتوصلاً للاستمتاع بنتيجة هذه المباهاة وذلك التفاهم كان وسيكون السارق دائم المفاخرة بوقوف الناس على براعته في اختيار الطرق الجديدة واستنباط الحيل الغريبة — وكان وسيكون القاتل مسروراً باعلان آثامه لنوى آملاً ان يجدوا فيها اعمال بطل من نوعه ! . وكان وسيكون السياسي جاداً في اقناع الآخرين ان دهاءه اقتدار وسوء ظنه وروغانه فطنة وحكمة . كذلك الرجل يسر ويرجو ، ويريد ان تشعر المرأة باستبداده ظناً منه ان الاستبداد هو السيادة ، وان هذه مقياس ذاتيته التي يريدها كبيرة . رضيت المرأة عن تلك السيادة ام تمردت عليها في نظره سيان ، بل اظنه — سامحني الله ان كنت مخطئة — مؤثراً تمردها على

اذعانها لانها كلما زاد تمردها زاد شعوره بالسيطرة . واشد الملوك فرحاً بهز الصولجان ، وارفعهم للرأس كبراً وتيهاً تحت ثقل التيجان هم ذوو العروش المتداعية للهبوط. والرجل ملك متداع عرشه لان ريح الفوضى تهب عليه من كل جانب وخطوات الارتقاء النسائي تتوالى متكاثرة متمكنة مع مرور الايام .

* * *

لكنه ملك عزيز

هو الاب والاخ والصديق والخطيب والزوج فاذا سقط سقطنا معه ، واذا ارتفع كنا بارتفاعه عظيمات . لذلك نريد له خيراً ونجتهد في تأييد دولته بشرط ان ينصب عرشنا بقرب عرشه وان نقف الى جنبه وقفة المثيل بجوار المثيل ، نريد ان نكون متساويين في الحقوق الادبية والعمرانية ما دمنا متساويين في الواجبات والمسؤولية . بل ان واجباتنا ومسؤوليتنا يفوقان ما عليه من مسؤولية وواجب !

فيا ترى متى يرضى الرجل بتقرير هذه الحقيقة ؟

ما اطيب قولك ، يا سيدتي الباحثة ، انك تشفقين على من يستحق الشفقة وعلى من لا يستحقها. الرجل من الذين يستحقون الشفقة لانه لا يعرف انه يستحقها . انه باستعبادنا لمنتحر . ولو

صرفنا النظر عن مستقبل الذرية وبحثنا في حياته الفردية لوجدنا ان ما من احد يساعده على التخلص من الشوائب الشائنة ويحثه على انماء شخصيته الغنية المخصبة الا نحن . كما انه لا يهدينا الى واجباتنا ويضع في ضعفنا قوة الاّه .

الحجاب ؟ وما هو الحجاب ؟

مرحباً به وما دمنا في وسط لا يعرف كيفية معاملة المرأة ولا يستطيع احترامها. ولكن كيف نلوم الرجل على كلامه ونظراته ما دام رجل اليوم صنع امرأة الامس ؟ هكذا علمته امه وان لم تعلمه ذلك فانها لم ترشده الى ما يفضله، ولا ذنب لها لان قصورها في جهلها لم يكن الا نتيجة اتفاق ابيها وزوجها على جعلها عبدة.

لا لوم على ابناء تلك الامهات . الا ان مستقبلنا صالح لان حاضرنا مملوء بالآمال الطيبات . النشء تتنازعه طبائع الوراثة ومؤثرات العصر وعواصف الفوضى المهاجمة قديم التقاليد من كل ناحية . ولكنه ينشد الصراط السوي ويصغي الى صوت الاصلاح . فارفعي صوتك ، يا سيدتي ، ولا تيأسي ! قولي بصراحتك ، واكتبي بشجاعتك ! جاهري ولا تصمتي !

ان البذرة التي تزرعها اليوم يد الزارع تنبت سنبلة في كيانها حياة الغد وما يتبعه من الايام . وعندما تخضر المروج بنضرة

الرجاء فتتموج فوق غلتها نسمات الحياة اذ ذاك سيسمع المستقبل صدىً جميلاً يرد ابيات الامير شوقي :

صدّاح يا ملك الكنا ... ر ويا امير البلبل
صبراً لما تشقى به ... او ما بدا لك فافعل

فتجيب الاصداء الجديدة : لقد فعلت ! لقد فعلت !

مي

الى الساعة المفقودة

هذه رسالة وجهتها مي الى ساعتها العزيزة وقد فقدتها في هنيهة سوداء :

جعلها ارباب التجارة حلية نسائية ، واتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الثرى .

صورة مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتي ، مساحتها رمز للفضاء ، دورتهـــا مرسح اللانهاية ، حدودها حدود الامـكان ، علاماتها مقاطع الوقت الذي رتبه الانسان ، ساعاتها مقياس الاعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال ، ثوانيها دقائق القلب ... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً .

فيا لهول ثواني الزمان ، ويا لهول نبضات قلب الانسان !

بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في احشاء الثرى : الماء والنار

فتميد الارض بمن عليهـــا وتنفطر اساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية وتزفر الطبيعة زفرتهـا القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة ببنيها، تفتح صدرها مرحبة فيتدحرجون الى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً .

بين ثانية وثانية يتـلاقى الجيشان في ساحـات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء وتختطف بروق السيوف غـالي الارواح ولاجل كلمة غالب او مغلوب تنـدك عروش وتنتصب عروش تدمر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشاد غيرها ، تتجندل افراد وتفنى مجاميع فترتدي الاقوام سواد الالوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الاحزان .

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمـع عين ، يخون صديق ويخلص عدو بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الاسرار. دماء داخلة الى القلب ودمـاء منبعثة منه ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية. بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها اعماق العمر وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العاطفة ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ،

قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء ، هتاف الروح المسلّمة ولهـــاث الروح المودّعة !

* * *

يا ابنة ابيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننـــا يوم الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء . فانت غادرة خائنة هاجرة كالزمان يا ابنة الزمان !

كم من ساعات طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكري يناجيك باحاديث هداه وضلاله ! ابسم لك عند السرور فانخيلك صامتة تبتسمين واتنهّد حيـــالك يوم الاسى فاتوسمك تتنهدين وتحزنين ، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العـلاء مستغيثين متوسلين .

لما افنت قلبي وحدة القلب ضغطت بـك على ساعدي قائلة « انت الصديقة التي لا تخون » . ولمـا مزقت سمعي اكاذيب الناس واحاديثهم المؤذية خاطبتك قائلة « انت لا تؤذين لانك لا تتكلمين » . ولمـا اذابني الجهل بدعواه والزور بسخافته نظرت اليك قائلة « انت عالمة لذلك تصمتين » .

وكنت تعزيتي !

وكنت زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان اطول إعراضك عني واقل اهتمامك بي !
في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه اثر سلسلتك واجيب انا على هذا العنف بلمسة المداعبة. وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية الحان احلامي وآمالي وفي الصباح كنت اول عين اشاهدها واول روح استجوبها .

كل ذلك وانت لا تنتبهين ولا تعلمين.

وها قد هجرتني. فقدتك وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني!

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها !

فاذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي اخاً له فانقلبي افعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمّك حتى تصرعيه قتيلاً .

... لكن لا ، لا ! ليس الاشرار الا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم ، لو كنت تعلمين . وهم خليقون بالرحمة اكثر من الاخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير لتكوني من نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيني يداً شوهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والنحيب! نامي هناك واسعدي ، ولو ساعة ، قلبـــاً بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

ان كان لديك ذاكرة تذكر ، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة ، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات ، واذكري واحفظي ما تعرفين !

ولكن... ألست ابنة الزمان الذي ننسب اليه في ضعفنا كل شيء وهو في قوته لا يبالي بشيء؟ ترين بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهن تتأملين ؟ انما علاماتك مداد قد تحجر ، وعقربك اصبع يشير الى علامة يجهل منها المعنى ، وانت آلة ليس الا وان كنت آلة الآلات المثلى .

انت ابنة الزمان الناسي ، وانت مثله لا تذكرين ! .

مي

الى لطفي السيد

سنة ١٩١٤

(المحروسة)

حضرة الاستاذ الفاضل

في نفسي كلمات جائلات منـــذ ثلاثة ايام ، اذا حاولت الافصاح عنها باللسان او بالقلم تبعتها حتى علامة الاستفهام .

ارفعها اليك لانك كتاب حي يرجع اليه الباحث في ساعة الحيرة والتردد . ولقد جرأني على ابداء فكري اني وجدت في خطبتك الجميلة ذكراً لوالدة فقيد مصر [١] ، وذكرت من اجلها جميع الامهات القرويات الساذجات اللائي اعطين لمصر اعاظمها . لم تضرب صفحاً على جهلهن وبساطتهن ومع ذلك فقد اعترفت بانهن مهذبات فتحي باشا وامثاله . كأنك اردت ان تنبه السامع

(١) فتحي زغلول باشا وقد كتبت الرسالة بعد حفلة الاربعين التأبينية

والقارىء الى ان الخواطر العظيمة – كما قال فوفيناج – تأتي من القلب ، وان على هذا القياس يكون ذكاء القلب اعظم ذكاء .

اما سؤالي فها هو : لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفلة التأبين ؟

حفلة جليلة اقامتها مصر لتأبين فتاها . ومصر كسائر بلاد الله – على ما اظن – تتألف من رجال ونساء . لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة او على طائفة المحامين والعلماء . بل كانت عمومية جامعة بين المحمدي والعيسوي والشرقي والاجنبي على السواء . غير انكم نبذتم منها جنساً واحداً : وهو الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي باشا ورفيقة نعشه – والدته وزوجه . نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيداً في ظل النصر الشامل يوم يكون الرجل غالباً قاهراً . حتى اذا نهش اليأس نفسه وادماها الالم ، وخالطتها وحشة الموت عاد الى جنب الجنس الذي لم يخلق الا ليكون شقياً – الجنس النسائي .

قالوا ان مثالا حياً واحداً هو انفع من الف درس نظري تمليه كتب المتقدمين والمتأخرين ، ويلقيه ابلغ الفصحاء من المتكلمين . فاذا شكا الرجال بحق او بغير حق ثرثرة النساء وخفة نفوسهن وميلهن الى الزخرف والزركشة و « الدنتلا »

واعتبروهن غير حريات بان يشاركنهم في الحياة القومية ، فما بالهم لا يسعون بالتقريب بين الافهام وحذف ما بين مدارك الجنسين من مسافة يزعمونها شاسعة .

غريب ان تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها الى أسمى درجات التأثر المفيد ، ويلفت عقلها الى هيبة العلم وعظمة الفضل ، ويعلمها اجلال الوطن ورجال الوطن . مع انكم تسمحون لها بالذهاب الى هذه الاوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية . روايات قد يكون لبعضها اثر طيب في الذهن ولكنه بعيد عليه ان يلمس من نفسها الموضع الذي كان ذلك الاجتماع قد يلمسه .

قد تقولون ان المرأة لا تفهم معاني النابين كما يفهمها الرجل فاجيب اننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماماً عظيما واستعملنا عند قراءتها ملكتي النقد والاستحسان . وهذا ينم عن استعداد فينا غير قليل تتجاهلونه عمداً او تجهلونه سهواً واهمالا .

واذا قلتم ان فتحي باشا كان عالماً مفكراً وان العلم والتفكير من خصائص الرجال . اجبت ان العالم الحقيقي والمفكر المخلص هو ذاك الذي يكتب للرجال والنساء بلا تفريق ، ويود ان تكون كتاباته هدى ووحياً لجميع افراد الامة . بل يود ان تكون ذلك لشعوب العالم اجمعين . ولا شك ان فتحي باشا

ذلك الرجل . اذ لا رأيت انا ولا رأى احد على غلاف كتبه كلمة كهذه « محظور على النساء » او « حقوق المطالعة محفوظة للرجال » .

لما قرأت الخطب والقصائد حملني الخيال الى ذلك الاجتماع ، ورأيت الجمع ينصت كأن صوت الخطيب والشاعر يجاهر بمايجول في نفس الجمهور . رأيت الجمع منحني الرؤوس كأنه عالم بوجود قوة خالدة في فضاء المكان يتهيب النظر ان يرتفع الى هيولاها ويخاف الفكر البحث في ماهيتها ، بينا القلوب تتردد همساً : هي الروح المودعة ترفرف على جباه ذاكريها .

موقف جليل فيه الذكرى افصح خطيب ، والصمت العميق احد تصفيق ، وآهات الحياة حكم باهرات ، والدموع ، دموع سعد باشا !...

انها دموع عظيمة آتية من بعيد ، من اعماق المحبة المقدسة . انها سيال حب تدفعه ابدية القلب الراحل في لوعة القلب الباقي . انها دموع بسيطة طاهرة ، بليغة ، ابكت من شهدها وما برحت تستفز دموع من سمع بها . دموع رجل نسي كل شيء في لحظة واحدة ، غير ذاكر الا انه كان له اخ خطير غاب غيابا ابديا لا لقاء بعده في هذه الدار . اراد اسداء الشكر الى الاحياء ، فما عثر الا على كلمات الوداع للراحل فلم يجد قلبه ولسانه وعيناه

الا بتلك الكلمات . وهي العبرات .

هذه آية البيان .

لو حضر النساء هذا الاجتماع لاخذن عنه امثولة طيبة وحفظن منه في نفوسهن اثراً جليلاً .

هذا سؤالي يا سيدي الاستاذ ، الحقته بالحواشي الطويلات . لعلك لا تجده بعد مطالعته سؤالاً بل تقريراً . وقد تحكم ان ما حسبته انا اشارة استفهام ليس الا علامة اسف .

لك ان تحكم بما تشاء، وكلمتي هذه هي ما تريد ان تكون.

مي

الى يعقوب صروف

في كانون الثاني سنة ١٩١٩

كان الدكتور صروف قد اهدى اليها في سنة ٩١٩ مجموعة المقتطف، فبعثت اليه بهذا الكتاب :

استاذي العزيز

بالامس غمست قلمي الصغير في اشعة قوس السحاب ، لأخط به تحية للدكتور هوردبلس .. من هو الدكتور هوردبلس ، وماذا يهمني ؟. انه هذا الرجل الاميركي .. وانا الفتاة اللبنانية..

هناك على شط الازرق البعيد كلية تلثم الامواج قدمها ليل نهار .. اني اعبد البحر لاني ارى فيه اتم صورة للابدية على الارض واعبد الكليات لانها ...

ما اكثر الناس ولوعاً بالاسماء الضخمة ، ولكن فلنحلل قشرة الظواهر قليلاً ، يصبح امتحان الجوهر ميسوراً . ما

الكليات الا كتاتيب تعلم المبادىء والمبدئيات . والمرء بادىء ابداً مهما كبر علمه ، واتسعت معارفه .

اذا كانت المدارس الابتدائية تعلمنا القراءة ، فان الكليات والجامعات لا تعلمنا الا ذلك .. تلك تعلمنا كيفية جعل الحروف كلمات وعبارات . وهذه تعودنا تحويل الكلمات والجمل معاني وافكاراً .. تلك تلقننا ابجدية اللغة ، وهذه تدفع الينا ابجدية العلم ، اي ابجدية الحياة والنور .

ولئن كثر الجالسون على مقاعد الجامعات ، وكثرت العيون المحدقة بحروف الضياء الخفي ، فمـــا اندر العقول المتنبهة لهمس الوحي ، واقل الايدي التي ما تسرب النور الى ثنايا فكرهـــا يوماً الا رفعت مصباح العرفان تهزه في جو الحياة .

هذا ما اردت ان احيي به الدكتور هوردبلس ، واحيي في شخصه الكلية التي انجبت انا من انجبت .. الكلية التي تعلمت انت فيها ابجدية النور .

والآن التفت الى الزاوية اليمنى ، فارى الاثر النفيس الذي وضعته يدك الكريمة في تاريخ نهضتنا اولاً ، ثم في مكتبي هـذا الصغير . فحق لي القول بان مقتطفنا صار مقتطفي انا .

فتحت اليوم احد الاجزاء ، فرأت عيني صورة رجل ترصع

الاوسمة صدره ، فقلت في نفسي ان اوسمتك انت فوق جميع الاوسمة جمالاً. كل سنة من سني المقتطف وسام خالد على صدرك لا ينال الصدأ من تبره ، ولا تعرف الغش دره ، بل ان ما فيه من السناء ابدي التألق على كر الدهور .

كلما عكفت على مطالعته رأيتني طفلة صغيرة ، وخلتك نبياً يقودني بيدي في حديقة فكرية ، اشجارها من غرس نشاطك ، واثمارها حركات قلمك ، والاطيار المغردة على افنانها خيالات افكارك . فما ابصر شجرة او ثمرة او زهرة ، الا سألتك أهي من صنعك ؟ .. فتضحك انت من سذاجتي وتسير بي الى ناحية جديدة من الحديقة الفيحاء ، حيث اجد جمالاً جديداً ، وتنسيقاً بديعاً. واعجابي وسروري يتجددان مع كل خطوة من خطواتي .. اشكرك شكراً يعادل اغتباطي وفخري بهذه الهدية الثمينة .

مي

الى يعقوب صروف

في شباط سنة ١٩١٩

طالعت مي مجلدات المقتطف فوقفت عند مقالات دبجها عن بحيرة قارون بعنوان « فتاة الفيوم » فذكرتها له في اول الرسالة ثم قالت :

وقد ادى بي ذلك الى مطالعة كثير مما كتبته عن المصريين القدماء وآثارهم وفنونهم . وكل فصل اجمل من ماضيه .

لا شك عندي في ان كل كاتب يتمنى ان يكون له من يذكره على هذه الصورة بعد موته ، واتمنى ان ينالني ما نال باحثة البادية [1] من حسن الحظ لان المخلصين قليلون حتى بعد موت الكاتب . والعداء له والغيرة منه ، وتعمد تصغير شخصيته والنيل من مقامه يبرز الى الوجود بعد سكونه في قلب الثرى . وعندنا

(١) ملك حفني ناصف المجاهدة المعروفة .

على ذلك براهين شتى . وكفى ان نذكر ادجار النبو المسكين.

نعم اتمنى ان يأتي بعد موتي من ينصفني ، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيها من روح الاخلاص ، والصدق والحمية والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل لانه ، كذلك ، لا عن رغبة الانتفاع به .

وقد قال قوم ان هذه صفة حسنة . واذا كانت لي صفة فهي تنحصر في هذه ... وانا سعيدة بها لانها كل شخصيتي .. بل اتمنى ان اموت في حياتك انت لتقوم لي بذلك العمل المبارك ، فاكون خالدة بخلود قلمك الذهبي لا باستحقاقي !

مي

الى يعقوب صروف

في آخر حزيران سنه ١٩١٩

... واظن الافضل ان اؤجل نشر ما بقي عن الباحثة [١] الى ما بعد عودتي من سوريا اذ اكون نلت من الراحة اللازمة فينجلي مني الخاطر.. ولما اراني تعبة افكر فيك واقدركم انت تعب كذلك ، وكم يجب ان تسافر لتبديل الهواء ومشاهدة مناظر جديدة ووجوه جديدة . ان لهذا الانتقال تأثيراً كبيراً في اي احد من الناس ولكنه للكاتب — خصوصاً اذا كان مفكراً مجداً من طبقتك — اكثر ضرورة منه لاي رجل غيره..

يسرني جداً استحسانك كلامي عن فيكتور هوجو . ولكن ما هو ذلك الكلام اذا قابلنا بينه وبين ما تبديه انت في الموضوعات العلمية والاجتماعية والفلسفية والنقدية حتى في ابسط

(١) باحثة البادية .

احاديثك بحيث اني لو حملت قلمـــاً ودونت كلامك لجاء منه خطاب او محاضرة عالية الديباجة ، مترابطة الاجزاء على اتم نهج عربي .. هذا حديثك وانت تعرفه . وقد لا تعرفه ، ولكنه كذلك على كل حال . وما اناقة رسائلك الا من اناقته ، وما جمال هذا وتلك الا من جمال الفكر الموحي .. انما المرء مفصح ابداً عما يساوره من الخواطر ويخالطه من الافكار .

قرأت في المجلد العاشر مقاليك البديعين عن ملتون والمعري ، ثم عن ابن خلدون وسبنسر ، والمقابلة بين كل اثنين منهما ... ما املح المقابلة واتمهـــا ، وما ابلغ تلك الجمل القصيرة الموزونة ذات الالفـاظ السهلة الفخمة ، والطف من كل ذلك انك نظمت شوارد ملتون الشعرية ابياتـــاً عربية عصماء ، ولا اعرف شيئاً اكثر صعوبة من ترجمة الشعر شعراً .

واني لأعجب كيف توصلت دفعة واحدة الى اتقان الانشاء في عصر لم يكن فيه الانشاء الا حواشي والفاظاً وزوائد لا تعني الا قلة المعنى .. كيف توصلت الى الاسلوب الكتابي الذي جمع بين اناقة اللغة ولبـــاقة التعبير وعظمة الفكر وسعة المعرفة والاطلاع ؟

مي

الى يعقوب صروف

سنة ١٩٢٠

اتهمها مرة الدكتور يعقوب صروف ، في رسالة بعث بها اليها ، بانها تفكر بلغة اوروبية قبلما تعبر عن رأيها بالعربية . فاجابته بالرسالة التالية :

استاذي العزيز

« لما جاءتني رسالتك يوم الاثنين الماضي كنت غارقة في مطالعة مراسلة شائقة بين فيلسوفين عظيمين : فولتير ودالمبير ، مراسلة دائرة حول اعظم اثر ادبي رأته القرون الحديثة : دائرة المعارف الفرنسية .

« يومئذ كان صاحبنا فولتير منفياً في سويسرا وكان دالمبير في باريس يتعاون وديدرو والانسيكلوبيديين الآخرين في اصدار دائرة المعارف جزءاً بعد جزء في ظل سليمان الشمال — كما

كان فولتير يسمي فريدريك الكبير في ظله المعنوي فقط — وهو الذي كان ينقد بعض فلاسفة فرنسا وعلمائها رواتب شهرية تكفل لهم الغذاء ، والكساء ، والسكن ، في حين ان الملكية الفرنسية التي كانت يومذاك في اعلى اعالي مجدها لم تكن تفكر فيهم الا لتطاردهم وتنفيهم وتحرق مؤلفاتهم ! ! وبعد ان وعدتهم هذه بالمساعدة الادبية قامت مدفوعة من الاكليروس تصادرهم وتكثر العقبات في سبيلهم .. فرضت عليهم الرقابة ، فقبلوها مرغمين ، وعينت من الرقباء اجهلهم ، فصار هؤلاء يحذفون كل ما لا يفهمون ، ولم يكونوا يفهمون شيئاً !

« في هذه الحالة المدلهمة اخذ الرجلان الكبيران يتراسلان ، وكان فولتير يساعد دالمبير عن بعد في تأليف الانسكلوبيديا . وكلاهما يشبه رفيقه بما لديه من عظمة فكرية ورغبة في خدمة المصلحة العامة وكره للجهل والدعوى والاستبداد. كذلك تشابهت منهما الرسائل في التظلم وبث الشكوى ، وفي معرفة الطبيعة البشرية والتساهل لغباوة الاغبياء . وما اقل كلمات المرارة الخارجة من قلبيهما المصدوعين. وما اعذب كلمات المؤاساة من قلميهما القادرين الملجمين . وما ابعد نقطة يدركها فكراهما في مدى المستقبل المنبسط امامهما !

دائرة المعارف موضوعهما الاول يحومان حوله باهتمام كما يهتم

الشريكان في عمل يخلدهما امام وجه الاجيـــال ، الا انهما لا يقتصران عليه ، بل ترفرف حول هـذه النقطة الجوهرية اسراب المواضيع الاجتماعية والفلسفية والعلمية والدينية والسيكولوجية ، حتى اذا عثرا على معنى ظريف او نكتة او ملحة ، وقفا عندها يضحكان كانهما طفلان لم تصادرهما حكومة ، ولم يهددا بعقوبات ان لم تكن عقوبات محكمة التفتيش بالاسم ، فهي هي بالذات ، ولا تقل عنها قسوة وهولا .

« كنت اقرأ معجبة ضاحكة مكتئبة متعزية معهما ، ومسبحة الله كما يفعل المؤمن ازاء مشهد طبيعي رائع . اسبحه لانه أبدع هذه العقول الكبيرة والنفوس السامية والاذهـــان المتوقدة ، واغبط كلا منهما على صديقه العبقري مقابلة بـين هذه العقول ، وبين عقل احدى جاراتنا الاسرائيليات التي كانت في ذلك الصباح قد اقامت القيامة بين برابرة الدار وطهاتها وخدمها اجمعين لتصل الى حل هذه المسألة الرياضية الهائلة « ربع الخمسين كام ؟ »

« في تلك الدقيقة جـــاء كتابك ترافقه المقدمة الهمايونية ، فأغمضت عيني قائلة :

(مالي وللفيلسوفين اغبط الواحد منهما على الآخر ، وانا قد اسعدتني الحيـاة بصديق مثلهما احدثه واراسله ، واتلقى تأثـيره الفكري العالي !) .

ثم فضضت الرسالة التي استأذنك بتسميتها روسية (ثورية) مرتين : روسية من حيث انها كالسلطة الروسية مخلوطة تواريخ وخطوطاً والوان حبر — وروسية من حيث ان نار الثورة الحمراء تشتعل فيها اشتعالاً من اول كلمة الى آخر سطر .

« تجاهر بانك نائم ساخط راغب في معاقبتي وتعنيفي . وما هي ذنوبي ؟ .. ليس من الضروري ان يكون لي ذنوب في عالم الوجود . ما دمت راغباً في ايقافي موقف المتهم ، فانك تخلقها من العدم . حتى المقدمة العظيمة لا تخلو من وخزة هنا ، ونغزة هناك ، ولطمة هنالك .

« لقد قلت مثلاً اني افكر بلغة اوروبية، قبلما اعبر عن رأيي بالعربية — قلت ذلك ، ولم تسمح لي بالاحتجاج . وهل دفاعي يجدي نفعاً اذا استشهدت الاخلاص اني ساعة اكتب العربية افكر بها ، ولا افكر بلغة اجنبية الا عرضاً كما يفعل جميع الناس الذين اذا ما استحضروا شخصاً او شيئاً استحضروا معه اللغة التي كانت مستعملة ساعة رأوه او سمعوه لاول مرة .

« اعترف بأن معرفتي اللغات الاخرى قبل العربية جعلتني اشبه جماعتنا بتلك المرأة التي لم تخرج في حياتها من قرية لا تزيد منازلها على السبعة عداً . وكانت تقول فيها انها اجمل مدينة في العالم ، وانها ام الدنيا . وتلك المعرفة جعلتني اسائل نفسي كلما

قرأت مقالاً لبعض من يدعون اعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء قائلة : « وماذا وضع هؤلاء الاقطاب من ذاتيتهم فيما كتبوا ، بل اين تلك الذاتية التي لا اجد لها اثراً ؟ »

« ثم مالي انا اشرح ميولي وابرز سروري اللغوي اذا كان هناك من يستحق الملام ، فانت هو . انت الذي تنصلت من الاسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت هذه روح العصر .. لو اردت ان اقلد احداً لقلدتك ، لكني اكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد وانا احب ان اكون أنا أنا في كتابتي .. — يا لطيف ما هذه الكبرياء والدعوى ! هكذا ستقول انت .. — يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد ! . وهكذا اجيبك انا ..

« وهاك تهمة اخرى . تقول في رسالتك اني انتظر اول اشارة لاعفيك من المقدمة ، كم انت شرير ساعة تقول ما لا تعتقد . ولكني لا اريد ان اخاصمك ، واغفر لك كل ما جاء في الرسالة اكراماً للمقدمة .

« اكتب اليك والشمس تنزل درجات الافق ، وقد سبحت غيوم المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت . في جميع اطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة . وعلى البسيطة مثل هذه اليقظة وتلك الحرارة . ما اجمل الشجيرات التي انبتتها لنا كرماً مصاحة التنظيم ، تبسم بأزهارها

الكلية على جانبي شارعنا .. هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، ام اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين ؟ . ربما كنت الآن سائراً في الخلاء تنظر الى هذا الغروب الساحر وتفكر بي .. اما انا فلم أخرج من البيت في هذه الايام التي كثرت فيها علي المعاكسات.

« فأمي تشكو ذراعها ، وابي يشكو الماً في ضرسه ، والتليفون ملخبط زي عقل العفريت كما يقول البربري . وهذه من الدواهي الصماء حقيقة .. وانا شكتني ابرة غليظة تحت ظفر ابهامي . ثم رأت حضرة مدموازيل توتو ان تتحفني بصداقتها ، وتعالجني بطبها الخـــاص ، فعضت على الاصبع المريضة ومزقتها بمخالبها ، فقلت ضاحكة: « ما اشبه القطط بالفلاسفة احياناً !..»

مي

الى الدكتور صروف

سنة ١٩٢٠

يا ذا التاج والصولجان

نهضت الساعة. وبي فكرة واحدة وهي رسم مجموعة عواطفي طاقة تهنئة وتكريم لمناسبة يوم ميلادك الجميل . او ان ارسم تلك الطاقة غضة نضرة زاهية جزلة ، كما هي في الاصل الخفي . واود ان انفث في القلم قدرة سريعة خلابة لاقول ولو في سطر واحد ما اشعر به ، وما اريد ان اعبر عنه . ولكن كيف افعل وادوات الرسم مبعثرة في هذا البيت الذي حق عليه اسم « بيت الراحلين » . اننا عائشون منذ امس الاول في عجاجة غبار وتشويش تكتنفنا رعايتها وتشملنا غايتها من كل صوب وحدب.

وضياع ادوات الرسم وتشتت آلات الكتابة خير ، لانك سترسل الى نفسي نظرتك التي لها من الرياضي الهدوء والتحليل،

ومن المفكر الادراك والنفوذ ، ومن الشاعر العطف والرواء ، فترى تلك الطاقة في تربتها النفسية ازهاراً تتهدل على اغصان مهما عصفت فيها المعاكسات ، وكافحتها انواء الحياة ، فانها لا تزيد الا متانة ونضارة . ونظرك فيما وراء المنظور اصدق وابلـــغ من تعبيري المنضد في عالم المحسوس .

لو كنت اليوم في لبنـــان لقضيت فريضة الحج الى حيث مشرق الشمس الفكرية منك وسيكون من مسراتي الكبرى في هذا الصيف ان ازور البقعة الصغيرة الكبيرة ، التي بلا ريب سيقيمون لك فيها تمثالا يوم يجتاز الشرق حد التحمس الوقتي الى تأدية الواجب نحو كبار رجاله ، الذين هم الكبار حقيقة ، وليس اولئك الذين زعمهم في بلاهة كباراً .

كذلك اليوم يزيد وضوح فكرة عندي انشئها ، وهي ان اقيم انا لك تمثالاً من نوعه ومن صنعي الخاص . وذلك بمقالات متتابعة في المقتطف احلل فيهـــا شخصيتك واستخرج عناصرها المختلفة ، فترغم على نشرها عملاً بحرية النشر ، واكيدك ، وابهج نفسي ولا سيما اني اؤدي نحوك واجباً كم اهملناه لاننا جهلناك . عسى توفقني الحياة الى تحت ذلك التمثال فأقول في كتاب جامع ما الخصه الآن بقول القديس فرنسيس : « ليس انبل في الحيـاة من العمل النبيل » . فكيف اذا كانت الحياة كلها سلسلة اعمال

نبل و كرامة . كيف بها اذا كانت كلها اشارة متمرن في رفع قبس النور والعرفان وسط دياجير الجهل والخمول !

تلك كانت حياتك ، وانها لتجمع في هذا الصباح امام عيني كشيء لامع جميل ، بل كهذا الفجر الذهبي الذي يملأ الجو بتهاويل الصباح الاغر ، فعش طويلا طويلا لتظل متابعاً ذلك العمل النبيل الذي ليس في الحياة انبل منه ؛ لتظل مستمراً على اعلاء يدك بتلك الاشارة المعنوية اشارة رفع قبس النور والعرفان

عش دوامـاً وقرينتك الجليلة والذي تحبان في شباب القلب والفكر والجسم والامل . واقبل مني ما تشاء من عواطف المحبة والاعجاب والتهنئة والتمني الصادق الحاد .

مي

الى جبران

في ٦ كانون الاول سنة ١٩٢٠

... لما كنت اجلس للكتابة كنت انسى من واين انت ، وكثيراً ما انسى ان هناك شخصاً ، ان هنـــاك رجلاً اخاطبه فاكلمك كما اكلم نفسي واحيانـاً كانك رفيقة لي في المدرسة . انما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفـة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة . اتكون المسافة وعدم التعاون الشخصي والبحار المنبسطة بيننـا هي التي كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال ؟ قد يكون . غير ان مكانتك في اعتباري وتقديري كانت مصدر هذه الثقة التي ظهرت منذ نشأتهـا كأنهـا فطرية بديهية لم تنتظر الوقت لتقوى ولا التجـــربة لتثبت ؟ فوصلت الرسالة الـــتي سبقت « النشيد » فاحجمت ازاء بعض الكلمات خوفاً مما قد تجر اليه . ومرت اسابيـع ستة او سبعة

دون ان اكتب لاني كنت اقول لنفسي: « يجب ان نقف هنا». ولكننا لم نقف بل خطونا خطوة ، بل قمزنا قمزة تذكر في «النشيد الغنائي » . وكنت في الاسكندرية ازاء البحر الذي يجلب التأمل وينمي حب الاختلاء . ولم اشأ ان اجعل لمعنى النشيد اهمية خطـــيرة فكتبت اقول : انا اردت ان تحصر مراسلاتنا في مواضيع فكرية . فقلت لك صريحاً انني النمس في رسائلك الفائدة التي اطلبها في كل مكان .

... انت قيدتني (مذنبة) في دفترك ، وقمت تشكو لاني كلما « حدقت في شيء اخفيه وراء القناع ، وكلما مددت يـداً اثقبها بمسمار . نعم فعلت ذلك متعمدة » . تعمدت « قطع تلك الاسلاك الخفية التي تغزلها يـد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة وروح وروح . وصرت اصرف المعاني وامسخ الاسئلة واضحك عند الكلمات التي تملأ العينين دموعاً . وهل كان لدي وسيلة اخرى لاحولك عن هذا الموضوع واذكرك اني وحيدة ابوي ؟ قد لا يكون في العائلة الغربية الا ولد واحد فيقذفون بـه من انكلترة الى الهند ، او فتاة واحدة فترحل من فرنسا الى الصين بلا جلبـة ولا ضوضاء . ولكن اين نحن من هؤلاء ، ونحن شرقيون . تعمدت ذلك خصوصاً لاوفر على نفسي عذاباً هي في غنى عنه ولأتحايد كل كلمة تقربني من ذلك الموضوع الذي ملأ

روحي شوكاً وعلقماً في هذه السنوات الماضية . ففهمت ما اريد وانما في غير معناه الحقيقي ، وفهمته على وجه لم اقصده . ثم سطت عليك الكبرياء، كبرياء الرجل ، فنسيت ان السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذين تكاتبنا ابداً كصديقين مفكرين نسيت ان الموضوع الآخر جاء عرضاً . وما دام انه لم يكن الاصل فقد كان له ان يتلاشى دون ان يؤثر في علاقاتنا الادبية الفكرية . اما صدق القائلون ان صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات . آلمني سكوتك من هذا القبيل ، وارهف انتباهي، فاعلمني انك لم تشاركني ارتياحي الى تلك الصداقة الفكرية لانك لو كنت سعيداً بها مثلي ، لما كنت رميت الى ابعد منهـــا . علمت انني كنت وحدي حيث كنت اظننا اثنين . وقدرتك انك لم تحسب تلك سوى مقدمة وانا كنت اقدرها لذاتها . وصار معنى سكوتك عندي «اما ذاك واما لا شيء.. وانت ادرى باثر هذا في نفسي » .

مي

الى جوليا طعمه دمشقية

كتبت اليها رسالتها الاولى تعرفها فيها بنفسها
بقالب طريف :

عزيزتي

...اصحيح انك لم تهتدِ بعد الى صورتي فها كها : استحضري فتاة سمراء كالبن او كالتمر الهندي كما يقول الشعراء او كالمسك كما يقول متيم العامرية وضعي عليها طابعاً سديمياً — فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض — من وجـــد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي وعطش روحي لا يرتوي ، يرافـق اولئك جميعاً ، استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد اكبر للشجن والالم — وهـذا هو الغالب دوماً — واطلقي على هـذا المجموع اسم « مي » تري من يساجلك الساعة قلمها .

مي

الى الدكتور صروف

سنة ١٩٢١

بعثت اليه برسالة مع احدى محاضراتها التي اعتادت ان تنشرها في المقتطف ، فقالت في تواضع كبير:

يا ذا الصولجان

لدي كلام كثير منه كلام اعجاب بالمقتطف عموماً ، وباب المسائل خصوصاً، ومنه كلام عتاب وتعنيف. نعم يا ذا الصولجان اقول تعنيف واعنيه بلا مداورة ، وهو تعنيف لاذع ، ولكن ضيق الوقت يجعلني اقصر الكلام على ما يتعلق بالمحاضرة الواصلة اليك .

فاذا رأت الذات الهمايونية ان تنشرها كلهـــا دفعة واحدة كان ذلك. واذا رأت ان تشطرها كفؤاد نعوم بك شقير القائل في كتاب « طورسينا » :

شطرت فؤادي من وسطه فشطر لذاك وشطر لذا

يعني شطر للقطر السوري وشطر للقطر المصري – قلت اذا رأت الذات الهمايونية ان تعـــامل المحاضرة كما عامل نعوم بك فؤاده ، فان اشارتها حكم واطاعتها غنم ، واذا رأت الا تنشر ولا تشطر ، فارجو ان تعاد في القريب العاجل او ، خبر عما قدر لها لأكون على بصيرة .

صباح سعيد واسبوع سعيد يا استاذي . مـــا احلى ان اذكرك في هذه الساعة العذبة على توقيع شدو الاطيار ونفحات النسيم . اني اذكرك وادنو بالخيال من الصولجان المحبوب مداعبة ومتباركة معاً .

مي

الى الغريب ؟

في سنة ١٩٢٢

انا وانت سجينان من مساجين الحياة .

وكما يعرف المساجين بارقامهم يعرف كل حي باسمه .

وقد التقينا وسط جماعات المثقفين فيما بينهم للضحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض احياناً .

انا منهم واياك غير ان شبهك بهم يسيئني ، لاني انما اقلدهم لاريك وجهاً مني جديداً . وانت ، اتجاريهم بمثل قصدي ام الهزؤ والاستخفاف فيك طوية وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور ، اراني واياك على تفاهم صامت سديم يتخلله تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر .

بنظرك النافذ الهادىء تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به . فصرت ما ذكرتك الا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم ، متمنية ان انثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

مي

الى الفتاة المصرية

سنة ١٩٢٣

الحياة امامك ، ايتها المصرية الصغيرة ، ولك ان تكوني فيها ملكة او عبدة :

عبدة بالكسل ، والتواكل ، والغضب ، والثرثرة ، والاغتياب والتطفل والتبذل . وملكة بالاجتهاد ، والترتيب ، وحفظ اللسان ، والصدق ، وطهارة القلب والفكر ، والعفاف ، والعمل المتواصل .

فان عشتِ عبدة باخلاقك كنت حملًا ثقيلًا على ذويك فكرهوك ونبذوك ، واذا عشت ملكة افدت اهلك ووطنك وكنت محبوبة مباركة .

فايهما تختارين ؟

اذا اخترت الملك فروضي نفسك على المكارم منذ الساعة ، لان الملوك يسلكون طريق العز منذ الصغر .

مي

الى الدكتور صروف

اذار سنة ١٩٢٣

استاذي الدكتور العلامة

اشكر لك المقال الممتع الذي كتبته عن نقد الكتب في عدد فبراير وكان عليّ ان اصمت تهيباً عند لهجته الصادقة على ان لديّ شيئاً اضيفه .

لم اعن « مجلتكم » في كلامي عن قصور الصحف ، ولا عنيت سواها من المجلات المنتبهة لما فرض عليها ، فتحدثنا كل شهر عن كتب ونشرات ومجلات واعداد ممتازة من الصحف بكلام كله افادة . فهي من هذه الوجهة ترضي الواجب العلمي الذي تعمل للقيام به بكرامة واستاذية .

اما ما ذكرته عن الصحف الاجنبية فاستأذنك بالا نتباحث فيه. لتلك الصحف شأنها في التفاهم مع جمهورها وارضاء بيئتها اننا

بعيدون عنهـــا . ولاغراضها ودخائلها جاهلون . انت تعرف منها بالاختبار بعض اساليبها، اما انا فاجهلها تماماً . فاذا حدثت عنها كنت دعية متطفلة . وعلى كل ، فليس كل سار في الغرب جديراً بالاقتباس في الشرق دون مراعاة الحاجة المباشرة .

وانما اسألك : كيف يمكنني ، انا الجمهور ان اطلع على حركة التأليف والترجمة في البلاد ، في مختلف الموضوعات الفلسفية والعلمية والاجتماعية والتمثيلية والادبية الخ ؟ كيف يمكنني ان اعلم بصدور ما يهمني من الكتب، سواء كان اهتمامي بها اضطراراً للعمل و كسب الرزق ، ام للفائدة الفكرية، ام للتفهكة وارضاء الرغبة ؟ ان رسائل الاخبار الكبرى هي الصحف السيارة، وكل الغاية منها ايصال الاخبار الى الجمهور واطلاعه على ما يجري في بيئته وفي العالم من الشؤون والحوادث . فان لم تنقـل لي تلك الصحف ما وجدت لنقله ونقل نظائره ، فمن ذا يكون الرسول بين المؤلف الذي كتب للجمهور، وبيني انا الجمهور الذي اتطلع الى ما ينشر لي مؤلفي ؟

تعلم الصحف الغاية من وجودها والسر من نشرها ، فتراها تذيع امثال الاخبار التالية :

« تشاجرت زينب بنت علي في الحرنفش مع جارتها المدعوة حنيفة بنت احمد السقا فتضاربتا وجرحت احداهما الاخرى جرحاً

طفيفاً في يدها تقتضي معالجته يومين كاملين ..

او

« سطا اللصوص ليلاً على عزبة « ما ادري ايه » فاستيقظ الاهالي ففر اللصوص ولم يوقف لهم على اثر » الخ .

فاكرم علينا يا افندم ، دام فضلك ، برأيك في نشر امثال هذه الغرر !.

قد يكون من واجب الصحافي ان يفسح صحيفته لما هو اتفه من هذا ، فكيف بالوقائع الفكرية والادبية التي هي من اصدق مقاييس تطور الامة ؟

اقول اذن ان الصحافي يتحتم عليه ـ وليس له في ذلك الخيار ـ يتحتم عليه ان يذكر في صحيفته كل كتاب يرسل اليه . واما الركون الى الاغضاء فاجحاف في حقوق المؤلف ، اجحاف في حقوق القارىء ، اجحاف في حقوق الجمهور الذي له ان يطلع على فوائد ما تنتجه افراده ، واجحاف في حقوق الصحافة ذاتها التي هي بذلك السكوت تسجل على نفسها القصور وعدم المبالاة بما لا يجوز اغفاله .

افهم ، واعلم بالاختبار ، ان النقد عمل شاق دقيق يستغرق وقتاً طويلاً ويتطلب معرفة واسعة ، وذوقاً مهذباً ، وبصيرة

شفافة ، واحساساً حياً يفهم العدل كما يفهم الجمال وكما يفهم انظمة الحياة ، فهو لذلك غير ميسور لكل من ادعى حمل لوائه . والصحف في شاغل لانهما كما بالمشاكل السياسية والقومية . فلا اقل من ان يؤدوا هذا الواجب وبان يذكروا باختصار اسم كل كتاب يهدى اليهم بلا تحيز ولا استثناء، مع اسم مؤلفه وموضوعه وثمنه والمكتبة التي يباع فيها ، حتى اذا شعر كاتب او قارىء باندفاع خاص في سبيل الكتاب كتب ما شاء في نقده او تمحيصه او معارضته او تحبيذه .

الصحافة سجل الوقائع اليومية والمرآة التي ينعكس عليها من نفسية البيئة الصور المتتابعة التولد — فاي الوقائع واي الصور تفضل ثمرات المطابع ونتاج الاذهان والقلوب ؟ بل يوم تقومون، ايها المفكرون، تزنون كفاءة الامة وتحصون خطاها في سيرها الى الامام، فهل لكم من وثيقة اصدق من الكتاب والفن والمتحف ؟ كلا ! وذاك ما تهملون !

والآن وقد فرغت من الخصومة التي يحسبها سادتنا الرجال عنصراً ملازماً للمزاج النسوي ، اعود ضاحكة من قلمي الذي تمتع لحظة باستقلاله التام وقام يناطح صخرة الصحافة المنيعة — استغفر الله ! عنيت صرح الصحافة المنيع .

مي

الى جبران

في ١٥ يناير سنة ١٩٢٤

... جبران ! لقد كتبت كل هذه الصفحات ضاحكة لأتحايد كلمة الحب . ان الذين لا يتاجرون بمظهر الحب ودعواه في السهرات والمراقص والاجتماعات ينمي الحب في اعماقهم قوة ديناميتية رهيبة قد يغبطون الذين يوزعون عواطفهم في اللألاء السطحي لانهم لا يقاسون ضغط العواطف التي لم تتفجر، ولكنهم يغبطون الآخرين على راحتهم دون ان يتمنوهـــا لنفوسهم ، ويفضلون وحدتهم ويفضلون السكوت ويفضلون تضليل قلوبهم عن ودائعها ، والتلهي بما لا علاقة له بالعاطفة . يفضلون اي غربة واي شقاء ـ وهل من شقاء وغربة في غير وحدة القلب ؟ ـ على الاكتفاء بالقطرات الشحيحة .

ما معنى هذا الذي اكتبه ؟ اني لا اعرف ماذا اعني بـه .

ولكني اعرف انك محبوبي واني اخاف الحب. اني انتظر من الحب كثيراً فاخاف ان لا يأتيني بكل ما انتظر. اقول هذا مع علمي بان القليل من الحب كثير . الجفاف والقحط واللاشيء بالحب خير من النزر اليسير . كيف اجسر على الافضاء اليك بهذا ، وكيف افرط فيه ؟ لا ادري . الحمد لله انني اكتبه على الورق ولا اتلفظ به ، لانك لو كنت الآن حاضراً بالجسد لهربت خجلاً بعد هذا الكلام ولأختفيت زمناً طويلاً . فما ادعك تراني الا بعد ان تنسى .

... حتى الكتابة ألوم نفسي عليها احياناً ، لاني بها حرة كل هذه الحرية .. اتذكر قول القدماء من الشرقيين : انه خير للبنت ان لا تقرأ ولا تكتب ؟ ان القديس توما يظهر هنا . وليس ما ابدي هنا اثر الوراثة فحسب ، بل هو شيء ابعد من الوراثة . ما هو ؟ قل لي انت ما هو هذا . وقل لي ما اذا كنت على ضلال او هدى فاني اثق بك واصدق بالبداهة كل ما تقول . وسواء أكنت مخطئة او غير مخطئة فان قلبي يسير اليك ، وخير مايفعل هو ان يظل حائماً حواليك يحرسك ويحنو عليك .

... غابت الشمس وراء الافق ومن خلال السحب العجيبة الاشكال والالوان ، حصحصت نجمة لامعة واحدة ، هي الزهرة آلهة الحب . أترى يسكنها كارضنا بشر يحبون ويتشوقون ؟

ربما وجد فيها من هي مثلي ، لها واحد جبران ، حلو بعيد هو القريب القريب ، تكتب اليه الآن والشفق يملأ الفضاء وتعلم ان الظلام يخلف الشفق وان النور يتبع الظلام ، وان الليل سيخلف النهار ، والنهار سيتبع الليل مرات كثيرة قبل ان ترى الذي تحبه فتتسرب اليها كل وحشة الشفق وكل وحشة الليل فتلقي بالقلم جانباً لتحتمي من الوحشة في اسم واحد : جبران .

ماري زياده

الى جبران

في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٥

... لقد قصصت شعري . وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا جبران من هن في هذا الزي يمكنك ان تذكرني وتقول لهن في سرك انك تعرف من تشبههن . كنت الى شهور راغبة في التخلص من هذه الذوائب التي يقولون ان لطولها يداً في قصر عقل المرأة ، وهو محض افتراء طبعاً. ولكن عندما رأيت شعري بجلكته وتموجه الجميل وعقاربه الجريئة مطروحاً امامي تداعبه يد المزين شعرت باسف على هذه الخسارة ، غير ان المزين طيب خاطري بعبارات تكسرت فيها الكلمات الالمانية والايطالية ، وهو روماني على ما يقول فهل كان في وسعي ان اضحك ؟ فمضى يصف لي جمال الشعر القصير ومنافعه ومميزاته لا سيما وانه ، على ما زعم المزين الصالح ، يليق لي كثيراً ... وسألته الى كم امرأة

يقول كل هذه الكلمات فاجاب : « اني فيلسوفة » . أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى الى قص شعرها ثم تحزن عليه ثم تضحك لان المزين يعزيها عن فقده بكلمات مسرحية . واين تلك الفلسفة والفتاة المذكورة تحدث بهذا الحديث عن شعر قـــاتم هو شعر البداوة والسحرة ، تحدث فنـــاناً شاعراً شغف بشعر الحضارة والشقرة . فهو لا يروقه الا الشعر الذهبي . ولا يترنم الا بجمال الشعر الذهبي . ولا يحتمل في الوجود الا الرؤوس ذات الشعر الذهبي .

مي

الى جبران

في ١١ آذار سنة ١٩٢٥

صديقي يا جبران

لقد توزع في هذا المساء بريد اوروبة واميركة، وهو الثاني من نوعه في هذا الاسبوع ؛ وقد فشل املي بان تصلني فيه كلمة منك . نعم اني تلقيت منك في الأسبوع الماضي بطاقة عليها وجه القديسة حنة الجميل ، ولكن هل تكفي الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل .

... لا اريد ان تكتب الي الا عندما تشعر بحاجة الى ذلك او عندما تنيلك الكتابة سروراً ، ولكن اليس من الطبيعي ان اشرئب الى اخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها جعبته ! ايمكن ان ارى الطوابع البريدية من مختلف البلدان

على الرسائل ، حتى طوابع الولايات المتحدة وعلى بعضهـــا اسم نيويورك واضح ، فلا اذكر صديقي ولا اصبو الى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه .

... ولتحمل اليك رقعتي هذه عواطفي فتخفف من كآبتك ان كنت كئيباً ، وتؤاسيك ان كنت في حاجة الى المؤاساة . ولتقوك اذا كنت عاكفاً على عمل ولتزد في رغدك وانشراحك اذا كنت منشرحاً سعيداً .

ماري

الى جوليا طعمة دمشقية

شباط سنة ١٩٣١

كتبت مي هذه الرسالة الى السيدة جوليا طعمة دمشقية قبل وفاة امهـا بايام قلية ، وقبل وفاة جبران بشهرين . وبعدها انقطعت عن الكتابة مدة طويلة .

عزيزتي

سامحيني يا عزيزتي على برقيتي ولكن لا تسامحيني على تأخري ولا تلتمسي لي لدى اخواتنا اعضاء الاتحاد عذراً . لكن الحق ان تغضبن فتقلن في كل ما قاله الشاعر الذي نسيت اسمه في شيء نسيت ما هو بالضبط !

ولكني اود ان اقول ان كل هذا الابطاء كان في الوسع تفاديه لو انت عينت تاريخاً ما ، فقلت لي مثلاً بواضح العبارة : سنصدر مجموعتنا في تاريخ كذا . لست اقول هذا للاعتذار .

لا ، لا . ولكن لانبئك ان وفرة ما لديّ من المشاغل ترغمني على القيام بالامر الذي ليس في وسعي تأجيل تاريخه . والامور التي لا تاريخ لها اؤجلها عادة مهما كانت عزيزة عليّ ، اثيرة لدي.

كلمة اخرى عن سلوى التي قرأت في احدى صحف بيروت انها ترأست جلسة في المدرسة وانها القت خطاباً وانها كانت في وقفتها تلك آية... وعندما قرأت ذلك نسيت الموضوع لأرى بين الحاضرين عينين زرقاوين نيرتين وقد ملأتهما دموع الفرح .

اسأل الله ان يملأ دائماً عينيك بدموع الفرح فهي الدموع التي تفيض على القلب معنى جود الباري ومحبته للخلائق التي يحبها بنوع خاص .

سلاماً ، يا عزيزتي ، سلاما لك ولاخواتي اعضاء الاتحاد .

مي

الى نسيبها الدكتور جوزف زيادة

القاهرة في ٢٨ ايلول سنة ١٩٣٥

عزيزي جوزف

منذ مدة طويلة لم اعد اكتب . وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي .

... اني اتعذب شديد العـــذاب يا جوزف ، ولا ادري السبب ، فانا اكثر من مريضة، وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما احسه فيَّ وحولي . اني لم اتألم ابداً في حياتي كما اتألم اليوم ، ولم اقرأ في كتاب من الكتب ان في طاقة بشري ان يتحمل ما اتحمل . وددت لو علمت السبب على الاقل . ولكني لم اسأل احداً الا وكان جوابه : لا شيء ، انه وهم شعري تمكن مني .

لا ، لا ، يا جوزف . ان هناك امراً يمزق احشائي ويميتني

في كل يوم ، بل في كل دقيقة .

...لقد تراكمت عليَّ المصائب في السنوات الاخيرة وانقضت على وحدتي الرهيبة – التي هي معنوية اكثر منهـا جسدية – فجعلتني اتساءل كيف يمكن عقلي ان يقاوم عذابا كهذا . وكان عزائي الاوحد في محنتي هذه مكتبي ووحدتي الشعرية ، فكنت اعمل واعمل كالمحكومة بالاشغال الشاقة لعلي انسى فراغ مسكني ، انسى غصة نفسي ، بل انسى كل ذاتي .

... انه ليدهشني حقاً كيف اني استطعت ان اكتب هذه الرقيمة . ولعل الفضل في هذا يعود جزئيـاً الى اللفائف التي ادخنها ليل نهار – انا التي لا عهد لي بذلك – ادخنهـا لتضعف قلبي ، هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم ...

واسلم لابنة عمك

ماري

من مي الى الريحاني

القاهرة في ١٥ اغسطس ١٩٣٩

صديقي العزيز جار الوادي وسيده

نحن الآن في عشية عيد العذراء ، عنيت عيد انتقال ستنا مريم الى السماء ، وناقوس ؛ جيراني الرهبان آخذ في القرع والترنم يدعو الى « زياح » المساء . بيد ان ترنيمته افرنجية ومتحضرة ارستوقراطية ، لا تلبث ان تدرك نهايتها بعد دقيقة او دقيقتين.

فأين منها شدو الاجراس اللبنـــانية ، ذلك الشدو الشرقي البلدي الديمقراطي ينطلق من كل صوب في الاعالي والاداني ، ويجتاح كل حيز من اقطاب الافق . مازجاً اصداء القمم باصداء الوديان حتى ليملأ الهواء عزيفاً وحنيناً ساعات طويلات وينسج من شتيت انغامه سيمفونيا لبنانية ولا سيمفونيات بتهوفن » .

وهل في وسعي وانا في مصر، ان لا انجرد الساعة - مرغمة - من الشعور بوجودي هنا لأحس اني في « فريكتكم » الخالدة مقيمة ، اجلس على سطيحة عمو ابي سلمون ظهري الى صنين والجرد جهتي اشهد عنده وداع الشمس لهذه الناحية من الارض، على وقع رنين الاجراس .

اني الآن فعلاً هناك ، اعيش تلك الثواني على مهل وفي كل ثانية من المتعة الفنية وحرية الحركة ، ما يملأ عاماً بطوله ، في تقديري انا التي تجرعت مرارة السجن وعرفت شقاء الضغط والاسر.

صحيح اني قضيت ثلاثة اعوام في لبناني الحبيب المحبوب واني عانيت منه ما عانيت ممن عانيت وكيف عانيته ، وان انقذني بعدئذ المنقذون ؟ واني حللت في رأس بيروت شهوراً واصطفت في « الفريكة » شهوراً متقلبة في شتيت الغمرات ، حتى لكأني بها في بحر متلاطم .

الآن ولما اخلص بعد من تلك الاعاجيب الرهيبة ، الآن اشك في بعض اوقاتي ان ذلك حدث يقيناً . ايحدث لي كل ذلك مما شهد اصحابي ومما لم يشهدوا ، فلا اموت ولا يبيض مني الا الشعر ، ايحدث كل ذلك واعرف من طبيعة الشر في الانسان اكثر جوانبها ادلهماماً وفظاعة ومراوغة فابقى على ما انا واثقة بطبيعة الخير في الانسان ، مطمئنة الى عدل الحياة شغوفاً بكل

صنوف الحياة ، نازعة الى كل مثل سام وكان عمري ونشاطي يتجددان كل صباح مع شروق الشمس ؟

ارأيت حياتك انسانا غيري في مثـــل هذه الغباوة ؟ ومع ذلك فهنالك امور تغيرت عندي او انني انا تغيرت في امور ، لست اطيق الآن ان يؤلمني او يزعجني احد ، ولست انيل الناس ثقتي شأني من قبل . وهذا دليل على ان في داخل نفسي شيئاً من الشيب كذلك... ما علينا .

اهنئك بدون كيخوتك الكبير ، واشكر لك ما اتحفتني به من صورته المصغرة وشعاره الثلاثي الركين ، اما قولك ان السياسة في تلك البلاد عاطفية دون كيخوتية فظريف جداً . وذو مغزى بنوع بعيـد . الا انه يعيد اليّ ذكرى حديثنا . ذكرى حادثة جرت لجدتنا المصرية القديمة الملكة (حشتبوت).

تعلم ان علمـاء الاثار الذين يباشرون الحفريات في هذه الديار كانوا قد عثروا فيما عثروا عليه ، على رأس جميل جـــداً لهذه الملكة التي كانت جميلة جداً ؛ وبين عشية وضحاها اختفى الرأس الجميل ، ولم يكن بين علمـاء الاثريات في مصر من يعلم كيف اختفى واين طار ؟ ومر زمن يسير واذا برأس الملكة في متحف برلين ! فانبرت الصحافة المصرية تصيح بملء صوتها ، مطالبة سفيرنا في برلين باحضار رأس الملكة بصورة رسمية. فاستمهلتها الحكومة

الالمانية اياماً ريثما يتمكن المستشار هتلر من زيارة المتحف وتقديم فروض الاجلال لرأس الملكة المصرية قبل مغادرتها ارض الريخ، وتحدد موعد تلك الزيارة في خلال اسبوع ، وتمت تلك الزيارة في موعدها، الا ان الرأس ظل في مكانه. علامَ ؟ لان المستشار العظيم رجل فن وذوق وعاطفة ، ما كادت عينه تقع على الملكة الجميلة حتى هام في حبهـــا . فمن ذا الذي تحجر قلبه الى درجة التفريق بين هذين الحبيبين ؟

وعلى ذلك ما زالت حيث كانت ، ومحبها لا يفرط بها .

استسلم لسرور الكتابة اليك ناسية انك ضيق الوقت كثير الاشغال ، فاقف هنا على ان استأنف الحديث في فرصة اخرى . سلامي للست سعدى ولأخينـــا البيرتو او البيرتوس كما تشاء وللصادرين جميعاً ولاصدقائي جميعاً ولابي سلمون والست نوافل والاسطى سلمون واهل الفريكة رجالاً ونساء وشيوخاً وشباباً واطفالاً ... يا لطيف . شكري الحار لاخينا السنيور البيرتوس لتفضله بصورة الفريكه . انه كثير الافضال وهذا بعض افضاله وشكر من درجة الحرارة نفسها او بمزيد من الارتفـــاع الى صديقنا البـارع بينو حويك ، هل غير اسمه ؟ المجد لريشته التي جعلت مشاهد الفريكة ماثلة في مكتبي هذا وآمل ان اكتب قريباً لشيخ البلد البيرتوس .

وددت ان اصف لك مبلغ ما اشعر به من الشكر لما شهدته من همتك واريحيتك في انقاذي وفي مؤاساتي وفي تشجيعي ابان تلك المحنة كلها ولكن شكري لكم جميعاً هو الجو الذي يحيط بي وهي الروح التي تملي علي كل كلمة اخطها وهو التسبيح الذي تسبح فيه ايامي ولياليَّ انه رحيم شامل كنجدتكم لي . دم كما انت يا اخا الهمم واسلم على ما اتمنـــاه لك ولجميع الذين تحبهم من خير وهناء .

مي

من مي الى الريحاني

هذه آخر رسالة كتبتها « مي » الى الريحاني من مصر ، وقد تكون آخر رسالة كتبتها في حياتها :

صديقي العزيز الاستاذ الريحاني

لدن وصولك الى اول مرفأ شرقي بعد هذا الغياب في امريكا، ارحب بك باسمي وباسم الادباء الذين يحبونك، وباسم هذا الشرق الفخور بريحانه العبقريّ .

ولشد ما فرحت لهذا الخبر ، لان وجودك في البلاد موسم فرح مي انا التي انتظر عودتك هذه منذ شهور ستة، منذ قدومي الى مصر ، وكنت قد كتبت منذ ثلاثة او اربعة اسابيع الى عزيزنا البرت اسألة عنك وعن موعد مرورك بالمياه المصرية لاكون في استقبالك بالمرفأ ، فجاء الرد متأخراً جداً اذ نحن الان في

الساعة الثانية بعد الظهر، وليس امامي سوى قطار الساعة الثالثة. ومهما اسرعت في الاستعداد للسفر فلن ادركه، وشؤوني موزعة، والعمال في البيت يشتغلون ، فلا استطيع ان اصرفهم فجأة . ولا استطيع ان الغي المواعيد والشؤون المنظمة لغدٍ .

واما قطار الساعة ٨ فيوصلني الى الاسكندرية حوالي منتصف الليل، فأدور في تلك الساعة وحدي ابحث عن مكان في فندق.. بقي قطار الساعة الحادية عشرة الذي يقضي الليل بطوله في الطريق. فاذا سافرت به ضمنت لنفسي ليلة ارق فرأيتني غداً على غير ما يرضيك. سيا وان صحتي على غير ما يرام في هذا الاسبوع حيث التعب الطويل المضني الذي انفقته وانفقه الآن على تنظيم هذا البيت ، والحر الذي لا يطاق ، قد ارهقاني واضعفاني بحيث اضطر الى ان امكث في السرير ساعات كل يوم طلباً للراحة . من اجل كل ذلك اخشى ان اكون غداً فيما لو سافرت ، في حالة تزعجك ولا ترضيني ولا تنيلني الغاية من السرور بمشاهدتك والتحدث اليك والاصغاء الى اخبارك من الكثير الذي اود ان اعرفه عن رحلتك ومحاضراتك .

وهكذا . انت تمر على بعد ثلاث ساعات من المكان الذي انا فيه مقيمة ، وانا حرّة . ومع ذلك ليس في مقدوري ان اسارع الى ملاقاتك كما كنت ابغي تحقيقاً للأمنية التي عللت بها

نفسي شهوراً طويلة . وهكذا الانسان يقدّر ، والظروف من ورائه تصرّف .

ان روحي تستقبلك في المرفأ المصري ، على رصيف المياه المصرية ، تحت سماء مصر التي هي سماء الشرق الذي تحبه كثيراً . بل منذ الساعة ، قبل ان تقبل على الارض المصرية ، وانت بعد في عرض البحر ، تسير اليك روحي خيالاً اثيرياً يطوف بك على سطح الباخرة ويناجيك باعذب ما يتناجى به صديقان ، ويسدي اليك الشكر خالصاً لما انعم به الان من الحرية البشرية المألوفة ... فان لك في هذا النجاح قسطاً باهراً وافراً . وان روحي لتتسربل بابهى هيئاتها لتقف بجانبك على سطح الباخرة .

ومن روحي ذلك اللألاء الصافي على الامواج ، جاعلاً الامواه امامك موكباً — موكب اكرام ومحبة وشكران — يسير بك الى الشط المصري .

واذا بدت في الجو سحابة عند الغروب فهي ترمز الى اسفي لاني سأحرم غداً فرصة نادرة . ولست اشك في انك مثلي آسف لاننا لم نجتمع ولو هذه الساعات الوجيزة لدن مرورك بالاسكندرية .

آسف مثلي ، سيما وان صديقنا العزيز فليكس لن يكون في استقبالك فتشعر بغيابه وتحزن عليه ، انت صاحب العواطف

الرفيقة بقدر ما انت صاحب الافكار القديرة . واهاً ، ما اشد تفجعي عليه وما اضعف يدي دون الكتـابة عنه ! اني لا اقوى على كتابة خطـــاب تعزية الى اسرته ، لاني انا فقدته كما فقده اهله . اقول لك صدقاً ، اني مرضت منذ علمت بوفاته . وكنت قد صممت على السفر الى الاسكندرية لأعزي اسرته واودع جـــثمانه فخانتني القوة ، ولو ذهبت لمرضت بحيث اضطر الى ملازمة السرير اسابيع ، هناك في الاسكندرية . وانا ، دون سائر الناس ، لا يجوز لي ان امرض...

مي

الى ص. ر.[1]

بدون تاريخ

تقولين انك تألمت لاجلي ؟ فانا سعيدة حزينة لانك تألمت لاجلي . ففي الالم يا عزيزتي تجد النفس لذتها القصوى ، هذا امر اكيد ولكنه عسير المنال احياناً. ولكنها الحقيقة . وهل هنالك حب اسمى من ذاك الذي يولده ألم الحبيب الذي نحب رغم الالم..

انك يا عزيزتي نفس كبيرة . وانا على يقين بانك تفهمينني . وانه ليسرني كل السرور بان احس انك تفهمين شعوري .

ان الصداقة لتزرع الحياة ازهاراً .

مي

(١) كتبت بالفرنسية .

الى الآنسة سيدوني ريبرجر (١)

بدون تاريخ

اتقدم اليك يا عزيزتي بهذه الصفحات المسلوخة عن فؤادي .

عندما فقدت بولين التي كنت اهديتهـــا « زهرة الصداقة » حلت محلهـا صديقة اشد وفاء منها . وهـذه الصديقة هي انت يا عزيزتي سيدوني . فرسائلك الملأى بالعذوبة والمودة والانفتـاح بعثت غير مرة اشعة الشمس الى روحي التي جلدتها الوحدة .

اتعلمين ما يفعل بالقلب الظامىء الى البواح هذا الفراغ، الفراغ الذي تتركه الصداقة الحقة .

في الليل الحالك الذي تخبطت في دياجيره نفسي القلقة ظهرت انت يا عزيزتي فكنت كالفجر بنوره وحرارته فاجتذبتني صفاتك السامية ، واجتذبني ذكاؤك ونبـــل الفؤاد . كما تجتذب القنبرة المغردة مرآة براقة .

كوني لي يا عزيزتي ما لم تكنه بولين . وتأكدي بانني لن انكر الجميل، اما اذا شاء القدر ان نبقى بعيدين كما نحن فلسوف احملك في صميمي ما دمت ودامت لي الحياة .

مي

(١) كتبت هذه الرسالة بالفرنسية .

الى فتاة رفيقة

ارخى الشفق سدوله على الارض بطيئاً ،

ولفقت حواشي السحب بخيوط الذهب والفضة ،

وتلاشى ما كان يبدو كبحيرات الياقوت وبرك الزمرد حيال عرش الغروب ،

وغشت الارض كآبة ربداء ،

وغشت عينيك كآبة ربداء ،

اي شمس تغيب فيك ، ايتها الفتاة ، ولماذا يشجيك المساء لتغشى عينيك هذه الكآبة الربداء .

الا احرصي على قلبك ايتها الفتاة !

* * *

تجلت الشمس في الاوج تحت رواق الفلك ،

والاشعة تغازل الازهار وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،
والمنازل تسطع كحجارة كبيرة من نور ،
وانتعشت جميع الاشياء انتعاش من خرج من ازمة وانفرج،
اما انت فتلوبين جائعة عطشى ،
تقولين ما يجب الا يقال وتفعلين ما يجب الا يفعل ،
ثم تأسفين على القول والفعل وتعودين تلوبين ،
ووراء الملل والسآمة وهيج فيك واحتدام،
اخبريني ما بك ، ايتها الفتاة .

لماذا اراك عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتاقين ما ليس بالبادي ؟

واذا تحولت عنك الى مرآتي رأيت هنـــاك وجهك مفجعاً حزيناً ؟

اهو امـل غزا نفسك فثقل على فؤاد منك اعتاد القنوط ؟
ام قرب تهليل الامل يأس ينتحب وشعور بالفشل طالما خالط الرجاء ؟

جميع الاشياء انتعشت انتعاش من خرج من ازمة وانفرج .
وانت اي علة تضنيك فتلوبين وتتأوهين ؟
الا احرصي على قلبك ، ايتها الفتاة !

* * *

جاء المساء مرة اخرى ، جاء المساء وتبعه الليل ،

وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة فاشعر بان شيئاً فيك امسى جثة .

لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساء بسكين منه سري يقطر دماً وظلاماً .

اخضعت نفسك لسحر الغروب ولم تحرصي على قلبك !
اما الآن وقد فرطت به فاحرصي على الجرح المنفتح فيه .
احرصي على جرح قلبك ايتها الفتاة !

مي

الى صديقة

بدون تاريخ

اجابت مي صديقة لها سألتها في محنتها الاخيرة لماذا اضربت عن الطعام ولماذا ترفض استقبال الناس والتحدث اليهم:

... اضربت عن الطعام لاني اشتهيت الموت بعدما لاقيت من اضطهاد وعسف في مصر حيث بيع اثاثي ومكتبتي بالمزاد العلني. او في لبنان حيث لاقيت وسائل غريبة لحمل الناس على الاعتقاد بجنوني.

وارفض استقبال الناس والتحدث اليهم. لان الناس الذين زاروني عند وصولي الى بيروت كانوا يحدثوني باحاديث تدل على اعتقادهم بجنوني... على ان هؤلاء معذورون الى حد، فقد زعموا اني احرقت مكتبتي وهي اعز ما املك في الحياة، لما فيها من مؤلفات تحمل تواقيع اصحابها وعبارات اهدائهم كما زعموا لهم اني حاولت احراق اطفال... فكان لهم ان يصدقوا.

مي

الى استير واكيم

في نيسان سنة ١٩٣٨

في محنتها القاسية راحت مي تبوح الى الممرضة استير واكيم بما لاقته من اضطهاد وآلام فبعد ان اخبرتها بما فعله معها اصدقاؤها في مصر ليستثمروها وهي بعد على قيد الحياة قالت :

... وجاؤني في مصر ، وانا بعد في حزني يقولون : سافري يا مي الى لبنان . في لبنان اهلك ، حرام ان تبقي هنا وحدك . وحملت نفسي الى لبنان ، على ان اجد في لبنان سنداً لرأسي التعب وقلبي الممزق ، وعزاء لاحزاني .

وفي لبنان لقيت الغصص مرة ، وفي لبنان حملت الى العصفورية على اني مجنونة ، وبكلموني بالجاكيت ... وفي العصفورية ذقت الموت مرات .

وبقيت ١١ شهراً . الى ان نقلت ولا ادري كيف ، الى هنا . [1]

مي

(١) مستشفى ربيز في بيروت

من انطون الجميل الى مي

في ١٥ نيسان ١٩١٥

عرف انطون الجميل مي منذ بدأت تكتب في « المحروسة » مجلة ابيها وكان صديقاً له. وقد اعجب بخواطرها التي كانت تدونها تباعاً بعنوان يوميات فتاة فكتب لها مبدياً اعجابه :

يا مي..!

قرأت اليوم ما كتبته في يوميات فتاة عما جال في صدرك من العواطف اثناء تلك الدقائق الوجيزة التي قضيتها بين صور مشاهير الكتاب ، في احدى غرف الجامعة المصرية ، وتلوت على مهل كمن يتلو صلاة، او يترنم بانشودة ما اوحى اليك من الالهام منظر امراء الفكر مصورين على الجدران من ديـــكارت ، وكورناي ، وراسين ، وموليير ، الى فولتير وهوجو .

ما اجمل هؤلاء الرجال ، بل انصاف الآلهة ، تذيع مفاخرهم بعد اجيال فتاة شاعرة ، وتمجد ارواحهم بلغة لم يعرفوا منها الا الاسم ، وليدة جبل الزيتون [١] ، وربيبة جبل الارز ، وفتاة

(١) ولدت مي في ناصرة فلسطين وتربت في لبنان وعاشت في مصر .

وادي النيل تنشر مآثر عظماء ابناء السين بلغة سكان المضارب !

تلك يا مي.. ما اجمل خلود الفكر ، اليس هو ادعى الى الغبطة من خلود النفس ؟ ! .

انت لست بالغريبة عن هذه الارواح الخالدة ، كما انها ليست بالغريبه عنك ، فمحبو الجمال كمحبي الحقيقة . اولاد طين واحد ، بل ابناء اسرة واحدة .

انا لم تقع عيني على هذه الصور التي وصفتها ، ولكني اشك في ان المصور الذي رسم بالوانه هيكلها الفاني قد اجاد اجادتك حيث صورت بالفاظك وعباراتك روحها الخالدة ، وفكرها الباقي .

انا لا اكتب اليك مقرظاً ، فلقد طالما عرفك المعجبون بادبك الزاهر ، وعلمك الوافر ، كاتبة تستولد فؤادها الرقيق اسمى العواطف ، فتلبسها بما تحيكه مخيلتها الفنية حلة قشيبة ، وتجملها بجواهر عقلها السليم ، فلا بدع اذا وصفت فابدعت .

لا .. انا لا اكتب لاقرظ تلك التي تقرظها اعمالها وحياتها الفكرية ، بل لأدون خواطر جالت في الصدر لدى تلاوة تلك الصفحة من اليوميات ، فحملت القلب على انتاج التأمل والتفكير . دونت هذه الافكار ، كما دونت تأملاتك اللطيفة في تلك الغرفة .

انطون الجميل

الى اسرة الريحاني

القاهرة في اواخر آب سنة ١٩٤٠

كان لموت الريحاني وقعه الصاعق على مي، فارسلت هذه البرقية المؤثرة وكان قد الم بها المرض العضال فانقطعت عن كل جهد فكري :

اسرة الريحاني ـ الفريكة

يا آل الريحاني الكرام افي وسعكم ان تعزوني في فقيدي وفقيدكم وفقيد الشرق العظيم ؟

مي

من مي الى الرافعي

قامت بين الاديب المصري مصطفى الرافعي ومي صداقة وطيدة استمرت حتى سنة ١٩٢٤. وفيما يلي رسالتان منها اليه ومنه اليها:

اتذكر اذ التقينا وليس بيننا شابكة فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً في اساليب الحديث غير اننا قلنا ما شئنا بالاسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

... وشعرنا اول اللقاء بما لا يكون مثله الا في التلاقي بعد فراق طويل ، كأن في كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

... ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى اخذت كلتاهما اسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه انه لقاء الحب ... ؟

وقلت لي بعينيك : انا ... وقلت لك بعيني : وانا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

وتعارفنا باحزاننا كأن كلينا شكوى تهم ان تفيض ببثها ؟

وجذبتني سحنتك الفكرية النبيلة التي تضع الحزن في نفس من يراها ، فاذا هو اعجاب ، فاذا هو اكبار ، فاذا هو حب ؟

وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران اليك ؟

وجعلت اراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفا كأن فيه زيادة لم تزد ؟

وكان الجو جو قلبينا ...

وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتفنا مرة ثانية .... ؟

مي

من الرافعي الى مي

... بماذا اصف مكانا للحب كأنمـــا مر به سر الخلود فاذا الوقت فيه لا يشبه نقصـــانا من العمر بل زيادة عليه ، وكانت يا حبيبتي كل دقيقة وثانيتها في مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان...

... وكنت وما اشعر من سحرك الا اني بازاء سر وضعني في ساعة من غير الدنيا وحصرني فيك وحدك ...

وهاجمتني من يقظتي واقتحمت علي من حذري ...
وخليتني وعينيك ، وخلتني وما كتب علي...

واتسعت روحي لتشملك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين في غرفتك ولكن في داخل نفسي

... وكنا نتكلم ولكن الفاظنا تتعانق امامنـا ويلثم بعضها بعضا من حيث لا يراها الا عيناي وعينيك .

وتراءت النفسان فملأتا المكان بافراح الفكر ، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر.

« وقلت لي بجملتك : انا... وقلت لك بجملتي : وأنا ...»

الرافعي

الى سلمى صائغ

رسالة كتبتها مي الى صديقتها سلمى صائغ وقد ربطت بين الاديبتين الكبيرتين مودة وثيقة .

القاهرة ٦ دسمبر ١٩٢٣

انت ربيع يا سلمى

انت ربيع بلادنا الملون ، المنشد ، الشفاف ، الخصيب ، في هذه النسمات رياح تهب وتعصف . الا ان الربيع يتغلب عليها ويخرسها كما تخرس اصوات الاجراس — اجراس العيد — كل همهمة ، وتعلو فوق كل زئير وكل زفير .

انت ربيع . وفي سماء الربيع منك يحلق جناحا « الامومة » انت ام لبنانية صالحة في افق ربيع لبناني جميل .

اني اعجب بك واحبك .

مي

فهرست

	صفحة
مقدمة	٣
الى باحثة البادية	١٢
الى جبران	١٧
الى الآنسة مي	٢٠
الى باحثة البادية	٢٤
الى الساعة المفقودة	٣٠
الى لطفي السيد	٣٥
الى يعقوب صروف	٤٠
» » »	٤٣
» » »	٤٥
» » »	٤٧
الى الدكتور صروف	٥٣
الى جبران	٥٦
الى جوليا طعمه دمشقية	٥٩
الى الدكتور صروف	٦٠
الى الغريب	٦٢
الى الفتاة المصرية	٦٣
الى الدكتور صروف	٦٤
الى جبران	٦٨
» »	٧١
» »	٧٣
الى جوليا طعمه دمشقية	٧٥

	صفحة
الى نسيبها الدكتور جوزف زياده	٧٧
من مي الى الريحاني	٧٩
» » »	٨٤
الى ص. ر.	٨٨
الى الآنسة سيدوني ريبرجر	٨٩
الى فتاة رفيقة	٩٠
الى صديقة	٩٣
الى استير واكيم	٩٤
من انطون الجميل الى مي	٩٥
الى اسرة الريحاني	٩٧
من مي الى الرافعي	٩٨
من الرافعي الى مي	١٠٠
الى سلمى صائغ	١٠٢

« مطبعة قلفاط » شارع بشارة الخوري ٣٤٤ بيروت

المجموعة الادبية

ظهر منها

١ ـ رسائل جبران	جبران خليل جبران
٢ ـ رسائل مي	مي زياده
٣ ـ ظلمات واشعة	مي زياده
٤ ـ ازاهير حلم	مي زياده
٥ ـ مي في حياتها المضطربة	جميل جبر
٦ ـ مع القافلة	حسين مروه
٧ ـ نوادر الجاحظ	تحت الطبع

تطلب هذه الكتب من

وكيل الدار في عموم افريقيا السيد محمد خوجه ـ تونس

وكيل الدار في عموم العراق السيد محمود حلمي ـ بغداد

توزيع شركة فرج الله للمطبوعات ـ بيروت

الثمن ١٢٥ قرشاً لبنانياً او ما يعادلها

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0111730269
0111730269
BUTLER STACKS

893.7269
M

DATE DUE

GL APR 2 1985

JUL 25 1992

INTERLIBRARY LOAN

JUN 03 2013

JUL 1

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58889531
893.7Z69 M
Rasail Mayy ; safaha

AP

893.7Z69 - M